التعرف لمذهب أهل التصوف

" لولا التعرف لما عرف التصوف "

تأليف

تاج الإسلام

ابو بكر محمد الكلاباذي

(٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م)

دار الكتب العلمية

الكتب العلمية

بيروت

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Marfat.com

مدینة العلم جامع مسجد
نور آباد - فتح گڑھ - سیالکوٹ

التعرف لمذهب أهل التصوف

"لولا التعرف لما عرف التصوف"

تأليف

تاج الإسلام

ابو بكر محمد الكلاباذي

(٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م)

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
بيروت - لبنان

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التصوف وكتاب التعرف

(١)

يقول العلامة الصوفى ، أبو سليمان الدارانى : « القلب الصوفى قد رأى الله ، وكل شىء يرى الله لا يموت ، فمن رأى الله فقد خلد » .

وكل كلمة خطها الصوفية ، كانت خالدة كالقلب الصوفى ، خالدة لا تموت ، لأنها ارتبطت بالله ، واستهدفت رضاه ، واقتبست من هداه ، وأشرقت بحبه ، وأضاءت بنوره .

ومادة التصوف ، سواء أكانت أخلاقا أو معرفة أو سلوكا ، أو تعبيرا عن مشاهدة ، أو تصويرا لمناجاة ، أو تذوقا لتجليات ، أو تحليقا حول أشرافات ، فهى مادة موصولة بالله ، قائمة به وله ، فانية فيه سبحانه .

ولهذا آمن الصوفية ، بأنهم أحباب الله وأصفياؤه وأولياؤه وصفوة عباده ، وحراس ينابيعه وآياته .

كما آمنوا بأن أعمالهم وحركاتهم ومعارفهم وأذواقهم ومقاماتهم ، كلها هبات الله ، وفيض عطاياه .

إن مولاهم سبحانه ، هو مربيهم ومعلمهم ، وهاديهم ومرشدهم ، إنه الحبيب القريب المجيب ، الآخذ بنواصيهم إلى وجهه الكريم .

Marfat.com

قيل لمعروف الكرخى : « أخبرنا عن المحبة أى شىء هى ، قال : ياأخى ، ليست المحبة من تعليم الناس ، المحبة من تعليم الحبيب » .

وبهذا الارتباط ، المشتعل بالوجد والحب ، وملهمات الأنس والقرب ، أصبح الصوفى أينما تولى ، فثم وجه الله ، لا يرى سواه .

وكل شىء فى الوجود مرآة ، يرى فيها الصوفى وجه الله وآياته وقدرته ورحمته ، يقول ذو النون فى مناجاته :

« إلهى ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنغم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثله شىء[1] » .

ومن هنا لم تتحدث طائفة من الناس عن الحب الإلهى ، وعن الفناء فى الله ، كما تحدث الصوفية .

والفناء الصوفى ، فوق سموقه الإيمانى ، مذهب فى التربية والأخلاق ، لا يماثله مذهب آخر من مذاهب التربية والأخلاق .

وعلى ضوء علم النفس الحديث ، وعلى هدى المذاهب العلمية التربوية ، يجب أن ننظر إلى الفناء الصوفى على أنه منهج للكمال والتسامى ، لا يطاوله غيره ، ولا يغنى عنه سواه .

إنه إفناء المشاعر والرغبات الأرضية ، فى شىء أكبر وأعظم من المثل الأعلى المصطلح عليه خلقيا وتربويا .

إنه إفناء هوى النفوس وشهواتها وعواطفها وكل ماتحب ، فيما يحبه الله ويريده ويأمر به ، ليعيش الصوفى متخلقا بخلق الله ، أو كما يقول الإمام الجنيد : « فتكون

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٩ ص ٢٠ .

Marfat.com

كل حركاته فى موافقة الحق ، دون مخالفاته ، فيكون فانيا عن المخالفات ، باقيا فى الموافقات » .

إنه إذن استبدال خلق بشرى ، بخلق ربانى ، وذلك ارتفاع بالبشرية لانعرفه ولا تعرفه الدنيا لغير الصوفية الإسلامية .

فالفناء الصوفى ، ليس فناء جسد فى جسد ، ولا فناء روح فى روح ، إنه فناء إرادة فى إرادة ، وفناء أخلاق فى أخلاق ،وصفات فى صفيات ، أوكما يقول الصوفية: « فانيا عن أوصافه ، باقيا بأوصاف الحق » .

إنه لتصعيد للكمال ، تصعيد تخفق أجنحته فى أفق قدسى علوى ، ثم تخفق صاعدة صاعدة ، حتى تنال شرف التخلق بأخلاق الصفات الإلهية .

وهذا الفناء هوالذى عبر عنه الحديث النبوى .. « تخلقوا بأخلاق الله » وصوره الحديث القدسى .

« كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به » .

و بهذا الفناء يحس الصوفى ، إحساس ذوق ووجدان وقلب وروح ، بإذن الله سبحانه معه ، وفى ضميره وحركاته وكلماته .

يقول العلامة الكلاباذى : « ومن فناء الحظوظ حديث عبد الله بن مسعود قال : « ماعلمت أن فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يريد الدنيا حتى قال الله تعالى ــ منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ــ » فكان عبد الله فى هذا المقام فانيا عن إرادة الدنيا (١) » .

لقد فنى الصوفية فى حب مولاهم ، وتخلقوا بأخلاقه ، وتأدبوا بآدابه ، وتربوا فى محاربيه وعاشوا فى ذكره ومناجاته ، فعلمهم وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضى عنهم ، ففتح لقلوبهم ملكوت السموات والأرض ، يريهم عجائب كونه ، و بدائع قدرته ،

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف . طبع عيسى الحلبى ص ١٢٥ .

Marfat.com

وأسرار خليقته ، وأفاض عليهم هداياه وعطاياه ، علوما وأذواقا ، أو كما يقول الصوفية « أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت »

ومن هذا الفناء جاءهم الخلود، وبهذا التخلق أصبحوا أئمة يهدون إلى الله بأمره، ويقفون حراسا على آياته ومشاهده ، مبشرين بكلماته ، متحدثين عن حضراته ، داعين إلى محبته ومناجاته ، مترنمين فى آفاقه وجدا وشوقا بتسبيحه وذكره .

يقول العلامة الإمام الكلاباذى واصفا لمقاماتهم وأحوالهم .

« (١) سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فَهِموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجبَ أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غُيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صَفَوية صُوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه ، هم فى حياته أهل صُفته ، وبعد وفاته ، خيار أمته ، لم يزل يدعو الأولُ الثانى ، والسابقُ التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله » .

تلك لمحة عن التصوف والصوفية ، الذين رأت قلوبهم الله ، فلم تمت قلوبهم بعد المشاهدة ، بل خلدت تنبض بالحب ، وتقتات بالذكر ، وتنعم بالهدى والرضا ، وترسل الشعاع الذى ينير طريق السالكين إلى ربهم .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف . طبع عيسى الحلبى ص ١٩ـ٢٠ .

Marfat.com

وخلد مع القلب الحيّ الطاهر ، كل ماصدر عنه من كلم حيّ طاهر طيب ، مرتبط بالله موصول به .

* * *

وإن مِن أخلد ما كتب عن التصوف والصوفية ، لكتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي ، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م .

وهو من أقدم وأدق ، وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم ورجاله .

كتبه العارف الكلاباذي فى العصر الذهبي للتصوف فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، القرن الذى بلغ فيه التصوف كماله العلمى والفنى ، واستكمل فيه التصوف ، علومه ومناهجه وآدابه وسلوكه ومقاماته .

وجاء كتاب الكلاباذى صورة كاملة لعصره الذهبي ، بل صورة للتصوف فى أعلى ذراه ، وأنقى موارده ، وأهدى معارجه .

والكتاب بعد هذا ، صورة ورسالة ، يقوم على منهج وغاية ، فى دقة وأمانة ، وبراعة علمية ، وكفاءة فنية ، يزينه ويجليه ، أسلوب عبقرى ، فيه إشراق ، ومرونة لايعرف الحشو ولاالتطرف ، ولاالبهرج المتكلف ، بل يقصد إلى غايته ، بأرشق الكلمات وأحلاها وأعلاها ، فى غير إسراف أوتطويل أوخروج عن الهدف والمنهج .

ولهذا كان هذا الكتاب ، مع قلة صفحاته موسوعة علمية صوفية كبرى ، يغنى عن غيره من الموسوعات الكبرى ، ولا يغنى غيره عنه ، حتى قال علماء التصوف القدامى : « لولا التعرف لما عرف التصوف » .

والكلاباذى ليس مؤرخاً فى هذا الكتاب فحسب ، بل هو عالم عارف ذائق ، يدلى برأيه وحجته ، ثم هو معاصر وصديق للثقات الأئمة الذين اضاءوا آفاق التصوف

Marfat.com

فى عصره الذهبى ، ولهذا يقول فى كتابه ، وهو يعرض لأحاديث الصفوة الأعلام : سمعنا .. أوقال لنا .

ويحدثنا الكلاباذى عن منهجه فى كتابه فيقول :

« (١) فدعانى ذلك إلى أن رسمتُ فى كتابى هذا ، وصف طريقتهم وبيان نحلتهم وسيرتهم ، من القول فى التوحيد والصفات ، وسائر مايتصل به : مماوقعت فيه الشبهة عند من لم يعرف مذاهبهم ،ولم يخدم مشايخهم ، وكشفت بلسان العلم ماأمكن كشفه ، ووصفت بظاهر البيان ماصاح وصنه ، ليفهمه من لم يفهم إشاراتهم ، ويدركه من لم يدرك عباراتهم ، و ينتفى عنهم خرصُ المتخرصين ، وسوء تأويل الجاهلين ، ويكون بيانا لمن أراد سلوك طريقه ، مفتقرا إلى الله تعالى فى بلوغ تحقيقه، بعد أن تصفحت كتب الحذاق فيه ، وتتبعت حكايات المتحققين له بعد العشرة لهم ، والسؤال عنهم » .

ثم لا يكتفى الكلاباذى فى كتابه بهذا ، إن له لشخصيته وعلمه واستنباطه واجتهاده ، وإنه ليسخر كل ماكاته ليقدم لنا المعرفة الصوفية فى صورة كاملة من تحصيله وتصويره .

وهو منهج فى التأليف قل نظيره فى قدامى المؤرخين ، يقول الكلاباذى :

« (٢) هذا ماتحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم ، من أقاويلهم فى كتبهم ، ممن ذكرنا أسماءهم ابتداء ، وماسمعناه من الثقات ، ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم ، والذى فهمناه من رموزهم و إشاراتهم فى ضمن كلامهم ، قال وليس كل ذلك مسطورا لهم على حسب ماحكيناه ، وأكثر ماذكرنا من العلل والاحتجاج ، فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف طبع عيسى الحلبى ص ٢٠ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف طبع عيسى الحلبى ص ٨٥

ومن تدبر كلامهم وتفحص كتبهم ، علم صحة ماحكيناه ، ولولا أنا كرهنا الإطالة لكنا نذكر مكان ماحكيناه من كلامهم فى كتبهم نصا ودلالة ، إذ ليس كل ذلك مرسوما فى الكتب على التصريح » .

وكتاب التعرف ، ليس كتابا من كتب الطبقات ، وليس موسوعة تجمع اشتاتا من المعارف لاترابط بينها ، إنه مادة العلم الصوفى وجوهره ، مع الدليل والتحليل والبرهان ، الذى لايرقى إليه شك ، ولايشوبه غموض .

فإذا تحدث الكلاباذى عن المقامات مثلا ، راح فى علم وذوق ، يحللها ويجليها ويكشف عن أسرارها ومعانيها ، ويقدم لها الدليل تلو الدليل من الكتاب والسنة والمنطق الإسلامى .

يقول الكلاباذى فى حديثه عن المقامات :

« (١) ثم لكل مقام بدء ونهاية ، وبينهما أحوال متفاوته ، ولكل مقام علم وإلى كل حال إشارة ، ومع كل مقام إثبات ونفى ، وليس كل مانفى فى مقام كان منفيا فيما قبله ، ولا كل ماأثبت فيه كأن مثبتا فيما دونه » .

وهو كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لاأمانة له » .

فنفى إيمان الأمانة ، لا إيمان العقد ، والمخاطبون أدركوا ذلك ، إذ كانوا قدحلوا مقام الأمانة ، أوجاوزوه إلى مافوقه ، وكان عليه السلام مشرفا على أحوالهم فصرح لهم .

فأما من لم يشرف على أحوال السامعين ، وعبر عن مقام ، فنفى فيه وأثبت جاز أن يكون فى السامعين من لم يصل ذلك المقام ، وكان الذى نفاه القائل مثبتا فيه فى

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف طبع عيسى الحلبى ص ٨٨

Marfat.com

فى مقام السامع ، فيسبق إلى وهم السامع أنه نفى ماأثبته العلم ، فخطأ قائله أوبدعه ، وربما كفره .

فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ فى علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها ، فأدركه صاحبه ، وخفى على السامع الذى لم يحل مقامه ، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ، ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه ، أو يسوء ظنه به ، فيهوس قائله ، وينسبه إلى الهذيان ، وهذا أسلم له من رد حق وإنكاره » .

* * *

ذلك هو منطق الكلاباذى فى عرضه العلمى ، وتحليله الصوفى ، وهذا منهجه فى سائر مايتناول فى كتابه من دقائق ورقائق ، ولهذا كان كتابه صورة صادقة لاسمه .

« التعرف لمذهب أهل التصوف » .

ولقد وقفنا طويلا عند هذه التسمية ، وأخذنا نتساءل .

أهذه التسمية دقيقة ؟ لقد أثارت — فى قوة — انتباهنا إليها ، ككل ؛ وأثارت — فى عنف — انتباهنا إلى كل كلمة من كلماتها .

إن المؤلف قال : « التعرف » ولم يقل : دراسة أو بحث أو شرح . وقال : « مذهب » بصيغة المفرد ، ولم يقل : مذاهب . وقال : « أهل التصوف » ولم يقل : الصوفية مثلا ، وكان من الممكن أن تكون التسمية هكذا : « دراسة مذاهب الصوفية » .

هل التزم المؤلف الدقة فى هذا العنوان وتروى فى كلماته ؟

إن المؤلف من أعلام الصوفية ، فإذا عبر عن التصوف فإنما يعبر عن شعور وذوق ؛ إنه يعبر عن تجربة مر بها ، فلا يمكن إلا أن يكون دقيقا .

ثم هو فقيه حنفى ، ومن خصائص فقهاء الأحناف : المنطق الدقيق ، والاستدلال العقلى .

والمؤلف إذنْ جمع بين الشعور الذوقى والإتقان المنطقى ؛ وكتابه إذنْ إنما صدر عن تجربة وعن منطق . ويظهر ذلك ، بوضوح ، فى كل صفحة من صفحات الكتاب .

ولكن ، أيظهر ذلك فى العنوان أيضا ؟

الواقع : أننا – بعد أن أطلنا التفكير فى العنوان – دهشنا لدقته الدقيقة وإحكامه المحكم ! ! !

إن أمر التصوف ، فى الواقع : ليس أمر جدل ، أو بحث ، أو أخذٍ وردٍّ ؛ وإنما هو : « تعرّفٌ » .

والقياس فيه ، والمنطق ، والاستدلال . والبحث ، والدراسة ، والأسلوب العلمى . يصيب ظاهرا منه وشكلا أو رسما ، وربما كانت حجابا أو ظلمة : تبعد الدارس عن النور بدل أن تغمره بلألائه .

ومن المؤكد : أن الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الأمر : هم عن الحقيقة محجوبون .

والتصوف : تجربة ، والتجربة شعور ، والشعور ليس منطقا ولا برهانا ، إنما هو : « تعرف » .

وحينما دخل المنطق والبرهان فى التصوف – وكان أوضح مثل لذلك دراسات المستشرقين ومن لف لفهم من الشرقيين – أفسد ذلك التصوف ؛ لأنه حول النبع المتدفق إلى ركود آسِن ، وحول السناء المتلألئ إلى ظلمة حالكة ، وأرجع فضل الله ونعمته إلى مرض من الأمراض يعالج بالمادة ويشفى بالعقاقير . . . .

إن التصوف ليس علما ، وإذا تدخل العلم فيه أفسده كإفساد العلم المزيف للدين حينما تدخل فى الوحى والنبوة والألوهية . ونقول : العلم المزيف ، لأن العلم

Marfat.com

الصحيح لا يتعدى حدوده ، وللعـلم الصحيح دائرته ، وهى التجربة المادية التى لا يتعـداها .

والتصوف تجربة روحية ، وليس للمادة شأن بالروح ، فليس للعـلم – بالمعنى الحديث – إذنْ شأن بالتصوف .

إن العلم : أرض ، ومادة ، وحس . والتصوف : سماء ، وروح وذوق .

وأمر التصوف ، فى النهاية : « تعرُّف » لا دراسة ، أو جدل ، أو علم .

و إذا ما وصلنا إلى هذه النتيجة – التى هى فى رأينا صحيحة كل الصحة – فإن معنى ذلك : أن من لا يشعر بالشعور الصوفى فإنه لا « يتعرّف » عليـه . كما أن من لم يسلك طريقا معينا بالذات ولو مرة واحدة فإنه لا يتعرف على ما فيـه : من ظل ظليل أو زهور ناضرات .

وقديما قالوا : « من ذاق عرف » . و بالتالى : فإن من لم يذق لا يعرف . وكتاب المؤلف إذن . ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور المتدفق الفياض ، وهذا التعبير لا يفهمه حق فهمه إلا من شعر به . ومعنى فهمه له : أنه « تعرّف » عليه . وفهمه ، إذن : إنما هو « تعرف » فحسب .

* * *

والمؤلف يقول : « مذهب » ، وفى الناس من يرى أن التصوف : مذاهب ، وفرق ، وطوائف ؛ ولـكن هـذا التفـكير المنحرف تأتّى إلى القائلين به ، من نظرتهم إلى علم الـكلام و إلى الفلسفة ، ففى علم الـكلام . أشاعرة ومعتزلة ، ومشبهة . وفى الفلسفة : أرسطيون ، و إفلاطونيون ، وديكارتيون .

وأمر الطوائف والفرق يتجاوز علم الـكلام والفلسفة إلى الاقتصاد ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع . والنفوس مهيأة لقبول فـكرة الطوائف فى جميع العلوم النظرية .

Marfat.com

ولقد خلط الـكاتبون بين هذه الدراسات والتصوف : فزعموا أن فى التصوف مذاهب وفرقا وطوائف ...

ولو أنعمو النظر ، لعرفوا أن التصوف تجربة روحية وليس نظرا عقليا . وإذا كان النظر العقلى يفرق الناظرين إلى طوائف وفرق ، فإن التجربة ، لا يختلف فيها اثنان . وإذا كانت الفلسفة ـ لأنها نظر عقلى ـ مذاهب متعددة ، فإن التصوف وهو تجربة : مذهب واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف .

وكما أنه لا يستساغ الخلطة بين الوسائل والغايات فى أى ميدان من الميادين ، فإنه لا يستساغ الخلط بين « طرق » التصوف ، وهى وسائل ، وبين الغاية ، وهى : التصوف نفسه .

فـ « طرق التصوف » : متعددة مختلفة وبعضها : أوفق من بعض ، وبعضها أسرع من غيرها ، ولـكنها ـ على اختلافها وتعددها ـ تؤدى إلى هدف واحد وغاية واحدة .

التصوف إذن : « مذهب » بصيغة المفرد ، لا مذاهب بصيغة الجمع ؛ وتعبير المؤلف إذا مستقيم كل الاستقامة .

* * *

ويقول المؤلف : « أهل التصوف » وللتصوف حقيقة ، أهله وذووه .

أما أهله وذووه . فهم هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفا ، وذكاء حادًّا ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يكون فى صفاء الملائـكة . وطبيعة تـكاد تـكون مخلوقة من النور .

والناس معادن ، والطبائع مختلفة : فمنها ما يرقى إلى الطبيعة الملائـكية ، وكأنه فى طبيعته . قبس خالص من نور الله . ومنها ما يسفل ويسفل إلى أن يصبح أو يكاد فى مستوى السائمة .

Marfat.com

ولقد صور رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، طبائع الناس فى تقبل النور الإلهىّ فقال .

« إن مَثل ما بعثنى اللهُ به من الُهدى والعلم : كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضا ، فكانَ منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماءَ ، فأنبتتْ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ . وكان منها أجادبُ ، أمسكت الماءَ فنفعَ الله تعالى بها الناسَ فشربوا منها وسقَوا وزرعوا ، وأصابَ طائفةً منها أخرى ، إنما هى قيعانٌ : لا تمسك ماءً ولا تنبتُ كلأً ؛ فذلك مَثلُ من فقه فى دينِ الله تعالى ، ونفعهُ ما بعثنى الله تعالى به ، فعَلِمَ وعلَّمَ ، ومَثلُ من لم يرفعْ بذلك ولم يقبل هُدى اللهِ الذى أرْسلتُ به » .

وفى القرآن صور رائعة للطبائع المختلفة ، والآية الآتية : تصور تلك الطبائع ، يقول الله تعالى لرسوله الكريم :

« وَاُصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحْيَاةِ الدُّنيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

ومن أروع الصور القرآنية للذين نزلت طبائعهم إلى مستوى السائمة ، قوله تعالى :

« وَاُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (١) .

واختلاف الطبائع مسألة بديهية ، وما دام التصوف نورا وهداية فإن له أهله وذويه : الذين اصطفى الله واجتبى .

« التعرف لمذهب أهل التصوف » إنه عنوان هادف . . كما أنه كتاب هادف

(١) سورة الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦ .

Marfat.com

ولهذا حرصنا كل الحرص على أن نقدمه مصححا محققا إلى العالم الإسلامى ، بعد أن راجعناه على نسختين خطيتين [١] ليكون قبسا من نور ، وقبضة من شعاع ، وفيضا من علم وأخلاق وطهر ، وصورة من منهج رسم الطريق الصاعد للعالم الإسلامى فى ماضيه المشرق العظيم ، ويرسم الطريق الصاعد للعـالم الإسلامى ، فى حاضره ، أو فجره الذى تتراءى أنواره فى الآفاق ، مبشرة بغد يسامق ماضيه فى الإشراق والعزة والقوة .

(١) يوحد بدار الكتب نسختان برقم ٦٦ مجاميع ، ١٧٠ م مجاميع .

Marfat.com

لجنة نشر الأصول الصوفية
وكتاب التعرف

(٢)

إن المدنية العالمية الحاضرة ، إنما هى مدنية المادة ، و إن أدنى نظرة فيها ترُى ، بوضوح ، أن الروح المادية : مسيطرة طاغية ، حتى لقد حُددت دائرة العلم فيها بدائرة مادية ، واتجه البحث نتيجة لذلك إلى المادة على الخصوص . ومنذ أن أرسى « بيكون » قواعد الاستقراء والملاحظة والتجربة اتجه الباحثون إلى اتخاذ ذلك وحده منهجا للبحث عن الحقيقة ، وحينما نشأ ملاحدة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، موّهوا على الناس ، فصوروا لهم الدائرة المادية على أنها الدائرة الثابتة التى تتكشف فيها الحقائق ، أمّا ما عدا هذه الدائرة مما وراء الطبيعة ومن الغيب ؛ فإنها زيف كلها وسراب خداع !!

وقام فى الغرب ، كما قام فى الشرق ، أفذاذ مصلحون ، ينادون بأن طغيان الروح المادية يتنافى مع الإنسانية ، ومع الأخلاق ، ومع الدين ، أىّ دين كان ؛ ولكن صرخاتهم تلاشت أمام الغرائز الجامحة ، والشهوات الملحّة ، والأهواء الغلابة . وسادت الروح المادية فى الحضارة الراهنة ؛ وكان من نتيجة ذلك ، الحرب الكبرى الأولى ؛ والحرب الكبرى الثانية اللتان لم تدعا قطرا من الأقطار ، أو إقليما من الأقاليم إلا ونثرتا فيه الشقاء ألوانا ، شقاء الفقر ، أو شقاء الموت والهلاك والدمار .

و إذا سادت الروح المادية ، أصبحت الأهداف والغايات مادية . أصبحت استعمارا وامتصاص دماء ، وسيطرة بالقوة ، واغتصابا ، بل أصبحت سلبا ونهباً ، واستعباد دولة لدولة ، و إلقاء بكل المعايير الأخلاقية والإنسانية إلى موطىء الأقدام .

وكل ذلك فى الواقع ، هو الحضارة الحالية ؛ بل إن الواقع ، أدهى من ذلك وأفظع . وأى قلم يمكنه أن يصور مأساة هيروشيما وناجازاكى التى تولى كبرها و باء بإثمها مَن يزعمون أنهم حملة مشعل حضارة القرن العشرين ؟

Marfat.com

وأى قلم يمكنه أن يصور نتائج مخترعات الدمار التى تتبارى الشعوب فيها وتتنافس ، وتنفق عليها آلاف الملايين يجمعونها من كدح العمال وتعبهم المضنى لينفقوها فى هلاك العالم وتدمير الإنسانية .

القنبلة الذرية ، القنبلة الهدروجينية ، الكوبالت ، أشعة الموت ، حرب الميكروبات ؛ حرب الغازات .

ومع كل هذه الوسائل التدميرية العالمية، تأتى وسائل أشد فتكا بالروح الإنسانى، والقيم الأخلاقية ، والمبادئ الإيمانية .

تأتى المذاهب الإلحادية الفاجرة ، والفلسفات الوجودية الداعرة ، والشهوات المسعورة السافرة .

إنها المدنية الحاضرة ، إنها الحضارة الراهنة ، حضارة الشيطان ، التى خلا لها وجه العالم أو أوشك .

ونحن أبناء القرآن ، لنا حضارة عريقة ، ولنا رسالة إنسانية عالمية ، هى رسالة الروح والإيمان والأخلاق والأخوة الإنسانية .

حضارة لا تخضع للغرائز ؛ ولا تسلم قيادها للشهوات ، ولا تسجد للشيطان ، ولا تتبع خطواته فى الإفساد والاستعباد والتدمير .

إنها لتسمو على هذا كله ، لأن هدفها الأول والأخير ، إيجاد الإنسان الفاضل، والظفر برضوان الله وحبه .

وإنها لرسالة يجب أن يتكاتف المؤمنون على القيام بها ، وفتح الآفاق لأنوارها، وكشف الحجب عن روحها .

يجب أن نضىء مصابيحها ، وأن نبرز مناهجها وأهدافها ، وأن نقدم زادها الروحى والخلقى والإيمانى للناس كافة ، ليجدوا فيه نجاتهم وعصمتهم مما يعده رسل الجاهلية الشيطانية من تدمير وإفساد .

Marfat.com

وإن فى تلك الحركات العلمية والإصلاحية ، الحركات الحية الفتية ، التى تمشى على وجه الحياة فى العالم الإسلامى لبشرى لمن يرجون أيام الله ، ويرتقبون عودة الحضارة الإيمانية إلى الحياة .

وفى سبيل الحضارة الإيمانية الربانية ، وبين يديها ، نطلق تلك الأشعة الصوفية التى تعمق الاتجاه الروحى فى النفوس القلقة ، وتثبت الإيمان وتنميه فى القلوب الحائرة.

وفى سبيل عالم أسمى ، وإنسانية أهدى ، ورضوان من الله أكبر ، قمنا بنشر سلسلة « الأصول الصوفية الكبرى » التى تضم روائع التراث الروحى الإسلامى .

ومما يبعث الغبطة والأمل فى قلوبنا ، أن الكثير من الكتب التى نشرناها ، والتى نحن بسبيل نشرها ، قد ترجم ترجمة صحيحة إلى اللغات العالمية .

ونحن نرجو أن يكون انتشارها فى الشرق والغرب معا أساسا لقبس من النور والهداية ، ندعو الله أن يكتب له النمو والانتشار حتى يتم ضوؤه ، ويعم نوره فيكون طليعة بعث جديد لحضارة جديدة أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا .

ونحن كما يرى القارىء كعهدنا ، لم نحاول أن نظهر تعالما زائفا ، بحشد الكثير من الهوامش التى لا ضرورة لها .

وإنما كان هدفنا ، أن ننشر النص صحيحا محققا محررا ، وأن نيسره للقارىء العربى ، كما نيسر ترجمته للقارئ الغربى .

***

عبد الحليم محمود   طه عبد الباقى سرور

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التعرف لمذهب أهل التصوف

الحمد لله المحتجب بكبريائه عن دَرْك العيون ، المتعزّز بجلاله وجبروته عن لواحق الظنون ، المتفرّد بذاته عن شبه ذوات المخلوقين ، المتنزّه بصفاته عن صفات المحدثين القديم الذى لم يزل ، والباقى الذى لا يزال ، المتعالى عن الأشباه والأضداد والأشكال ، الدالّ لخلقه على وحدانيته بأعلامه وآياته ، المتعرّفِ إلى أوليائه بأسمائه ونعوته وصفاته ، المقرّبِ أسرارهم منه ، والعاطفِ بقلوبهم عليـه ، المقبل عليهم بلطفه ، الجاذبِ لهم إليه بعطفه ، طهّر عن أدناس النفوس أسرارهم ، وأجلّ عن موافقة الرسوم أقدارهم ، اصطفى من شاء منهم لرسالته ، وانتخب من أراد لوحيه وسفارته ، أنزل عليهم كتبا أمر فيها ونهى ، ووعد من أطاع وأوعد من عصى . أبان فضلهم على جميع البشر ، ورفع درجاتهم أن يبلغها قدرُ ذى خطر ، ختمهم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وأمر بالإيمان به والإسلام ، فدينه خير الأديان ، وأمتّه خير الأمم . لا نسخ لشريعته ولا أمّة بعـد أمّته ؛ جعل فيهم صفوة وأخيارا ، ونجباء وأبرارا ، سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلَصت عليها معاملاتهم فمنحوا علومَ الوراثة . وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزَكت أفهامُهم ، وأنارت أعلامهم . فَهِموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجبَ أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارُهم ، وجلّت عنـد ذى العرش أخطارُهم ، وعميت عمّا دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربّانيون ، سُكوتٌ نظّار ، غُيّبٌ حضّار ، ملوكٌ تحت أطمار ، أنزاع قبائل ،

وأهل الشام سموهم « جوعية » : لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر مايقيم الصلب للضرورة كما قال النبي صل الله عليه وسلم « بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » .

وقال السرى السقطى ووصفهم فقال : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى وكلامهم كلام الخرقى:

ومن تخلّيهم عن الأملاك سموا فقراء ، قيل لبعضهم من الصوفى ؟ قال : الذى لا يَملك ولا يُملك . يعنى لا يسترقه الطمع . وقال آخر : هو الذى لا يملك شيئاً وإن ملكه بذله .

ومن لبسهم وزيّهم سموا صوفية : لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس مالان مسّه ، وحسن منظره ، و إنما لبسوا لستر العورة فتجزّوا بالخشن من الشعر ، والغليظ من الصوف .

ثم هذه كلها أحوال أهل الصفّة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا : يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين . وكان لباسهم الصوف حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر ، هذا وصف بعضهم لهم حتى قال عيينة بن حصن للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليؤذينى ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم ؟

ثم الصوف لباس الأنبياء وزىّ الأولياء .

وقال أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إنه مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يأمّون البيت العتيق » . وقال الحسن البصرى : كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ويأكل من الشجرة ويبيت حيث أمسى . وقال أبو موسى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب

Marfat.com

الحمار و يأتى مدعاة الضعيف . وقال الحسن البصرى . لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف .

فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا ولبسهم وزيهم زى أهلها سموا صُفّيّة وصوفية .

ومن نسبهم إلى الصِّفَة والصَّف الأول فإنه عبر عن أسرارهم و بواطنهم : وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها صفّى الله سرّه ونوّر قلبه . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذ دخل النور فى القلب انشرح وانفسح » قيل وما علامة ذلك يارسول الله ؟ قال « التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه . وقال حارثة حين سأله النبى صلى الله عليه وسلم ما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت بنفسى عن الدنيا فأظمأت نهارى وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون ، و إلى أهل النار يتعادون .

فأخبر أنه لما عزف عن الدنيا نوّر الله قلبه فكان ماغاب منه بمنزلة مايشاهده . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحبّ أن ينظر إلى عبد نوّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة » فأخبر أنه منوّر القلب .

وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف .

وهذا أيضاً من أوصاف أهل الصفّة ، قال الله تعالى : (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (١) .

والتطهّر بالظواهر عن الأنجاس ، و بالبواطن عن الأهجاس وما يتحرك فى الضمير من الخواطر .

---

(١) التوبة : ٩ ، ١٠٩

وقال الله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ثم لصفاء أسرارهم تصدق فراستهم . قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ألقى في روعى أن ذا بطن بنت خارجة، فكان كما قال . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الحق لينطق على لسان عمر » . وقال أويس القرني لهرم بن حيان حين سلّم عليه : « وعليك السلام ياهرم بن حيان» ، ولم يكن رآه قبل ذلك ، ثم قال له : عرف روحي روحك . وقال أبو عبد الله الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في أسراركم ويخرجون من هممكم .

ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو في الصفّ الأول ، لأن هذه أوصاف السابقين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يدخل من أمّتي الجنّة سبعون ألفا بغير حساب » ثم وصفهم وقال : « الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يكوون ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

فلصفاء أسرارهم ، وشرح صدورهم ، وضياء قلوبهم : صحت معارفهم بالله ، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل ، وتوكلا عليه ، ورضا بقضائه .

فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ، ومعاني هذه الأسماء كلها في أسامي القوم وألقابهم ، وصحت هذه العبارات وقربت هذه المآخذ .

وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر فإن المعاني متّفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صَفَوية .

وإن أضيفت إلى الصفّ أو الصُّفّة كانت صَفّية أو صُفّية ، ويجوز أن يكون

---

(١) النور : ٢٤ ، ٣٧

تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية ، وزيادتها فى لفظ الصَّفِّية والصُّفية إنما كانت من تداول الألسن .

وإن جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ ، وصحت العبارة من حيث اللغة . وجميع المعانى كلها من التخلّى عن الدنيا وعزوف النفس عنها ، وترك الأوطان ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس حظوظها وصفاء المعاملات،وصفوة الأسرار ، وانشراح الصدور وصفة السباق . وقال بندار بن الحسين : الصوفى من اختاره الحقّ لنفسه فصافاه وعن نفسه برّأه ولم يردّه إلى تعمّل وتكلّف بدعوى .

وصوفى على زنة عوفى أى عافاه الله فعوفى وكوفى أى كافاه الله فكوفى ، وجوزى أى جازاه الله ، ففعل الله به ظاهر فى اسمه والله المتفرّد به .

وقال أبو على الروذبارى وسئل عن الصوفى فقال : من لبس الصوف على الصفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى .

وسئل سهل بن عبد الله التسترى مَن الصوفى ؟ فقال : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل أبو الحسن النورى ماالتصوف ؟ فقال : ترك كل حظ للنفس .

وسئل الجنيد عن التصوف ، فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلّق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ماهو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة واتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة :

وقال يوسف بن الحسين : لكل أمة صفوة ، وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن عن خلقه ، فإن يكن منهم فى هذه الأمّة فهم الصوفية .

Marfat.com

قال رجل لسهل بن عبد الله التسترى : من أصحبُ من طوائف الناس ؟

فقال : عليك بالصوفيـة ، فإنهم لا يستكثرون ولا يستنكرون شيئا ، ولكل فعل عندهم تأويل فهم يعذرونك على كل حال .

وقال يوسف بن الحسين ، سألت ذا النون من أصحبُ ؟ فقال : من لا يملك ولا ينكر عليك حالا من أحوالك ، ولا يتغير بتغيّرك وإن كان عظيما فإنك أحوج ماتكون إليه أشدّ ما كنت تغيراً .

وقال ذو النون : رأيت امرأة ببعض سواحل الشأم ، فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا . قلت . وأين تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . قلت : صفيهم لى ، فانشأت تقول :

قَوْمٌ هُمُومُهُمُ بِاللهِ قَدْ عَلِقَتْ　　فَمَا لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمُو إِلَى أَحَدِ
فَمَطْلَبُ الْقَوْمِ مَوْلاهُمْ وَسَيِّدُهُم　　يَاحُسْنَ مَطْلَبِهِمْ لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
مَا إِنْ تَنَازَعُهِمْ دُنْيَا وَلَا شَرَفٌ　　مِنَ الْمَطَاعِمِ وَاللَّذَّاتِ وَالوَلَدِ
وَلَا لِلُبْسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنِقٍ　　وَلَا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ فِى بَلَدِ
إِلَّا مُسَارَعَـــةً فِى إِثْرِ مَنْزِلَةٍ　　قَدْ قَارَبَ الْخَطْوَ فِيهَا بَاعِدُ الأَبَدِ
فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيَةٍ　　وَفِى الشَّوَامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ الْعَدَدِ

Marfat.com

الباب الثانى

﴿ فى رجال الصوفيـــة ﴾

ممن نطق بعلومهم ، وعبر عن مواجيدهم . ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم ؛ على بن الحسين زين العابدين ، وابنه محمد بن على الباقر ، وابنه جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم ، بعد على ، والحسن ، والحسين ، رضى الله عنهم ، وأويس القرنى وهرم بن حيان ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وأبو حازم سلمة بن دينار المدينى ، ومالك بن دينار ، وعبد الواحد بن زيد ، وعتبة الغلام ، وإبراهيم بن أدهم [١] ، والفضيل بن عياض [٢] ، وابنه على بن الفضيل ، وداود الطائى [٣] ، وسفيان بن سعيد الثورى ،

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور : من كورة بلخ كان من أبناء الملوك ولكن قلبه دفع به إلى الناحية الصوفية .

دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها وكان يأكل من عمل يده وكان يكثر فى دعائه من قوله « اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك » وكانت وفاته سنة ١٦١ هـ .

(٢) هو أبو على الفضيل بن عياض : خراسانى من ناحية مرو وقيل إنه ولد بسمرقند ، مات بمكة فى المحرم سنة ١٨٧ هـ .

كان من قطاع الطريق ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » فقال : « يا ربى قد آن » ثم جاور الحرم حتى مات ، ومن كلامه : « لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها : لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه » .

(٣) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائى وكان سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلا   وأى عينيك إذا سال

وقيل فى سبب زهده إنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة يوما : « يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها » فقال له داود : « فأى شىء بقى » فقال : « العمل بها » فأخذ داود فى العمل وكانت وفاته سنة ١٦٥ هـ .

وسفيان بن عُيَيْنة وأبو سليمان الدارانى[١] ، وابنه سليمان ، وأحمد بن الحوارى[٢] الدمشقى ، وأبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى[٣] ، وأخوه ذو الكفل ، والسرى ابن المغلس السقطى[٤] ، و بشر بن الحارث الحافى[٥] ، ومعروف الكرخى[٦] ، وأبو حذيفة المرعشى ، ومحمد بن المبارك الصورى ، و يوسف بن أسباط رحمهم الله .

---

(١) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى : وداران قريته من قرى دمشق ، توفى سنة ٢١٥ هـ ، ومن كلامه : « أفضل الأعمال خلاف هوى النفس » .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى : من أهل دمشق صحب أبا سليمان الدارانى وغيره مات سنة ٢٣٠ هـ ، وكان يصفه الجنيد بأنه ريحانة الشام ، ومن كلامه : « من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فباطل عمله » .

(٣) واسمه ثوبان بن إبراهيم أوالفيض بن إبراهيم وكان أبوه من أهل النوبة أو إخميم ، توفى سنة ٢٤٥ هـ ، يقول عنه القشيرى : « فائق هذا الشأن وأوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا » ويقول عنه القفطى : « ذو النون بن إبراهيم الإخميمى المصرى من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة .. وكانت له كرامات » ويقول عنه المسعودى : « كان حكيما سلك طريقا خاصاً واتخذ فى الدين سيرة خاصة وكان من المعنيين بحل رموز البرابى فى إخميم كثير التطواف بها وقد وفق إلى حل كثير من رموزها ، ومن كلامه : « من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله (صلى الله عليه وسلم) فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » .

(٤) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى خال الجنيد وأستاذه ، وكانت وفاته سنة ٢٥٧ . كان يتجر فى السوق وهو من أصحاب معروف الكرخى فجاءه معروف يوما ومعه يتيم فقال : اكس هذا اليتيم قال سرى فكسوته ففرح به معروف وقال بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه فقمت من الحانوت وليس شىء أبغض إلى من الدنيا وكل ما أنا فيه من بركات معروف — قال : الصوفى هو الذى يتمثل فيه ثلاثة معان : ١) لا يطفى نور معرفته نور ورعه — ٢) ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة — ٣) لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

(٥) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافى . أصله من مرو وسكن بغداد ومات بها سنة ٢٢٧ هـ . وكان سبب توبته أنه أصاب فى الطريق كاغدة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل قد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية فطيب بها الكاغدة وجعلها فى شق حائط فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا يقول له : « يا بشر طيبت اسمى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة » قال بشر : رأيت النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المنام فقال لى يا بشر أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا يارسول الله . قال : باتباعك لسنتى وخدمتك للصالحين ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى هو الذى بلغك منازل الأبرار .

(٦) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى ، يقول عنه القشيرى : =

Marfat.com

ومن أهل خراسان ، والجبل : أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى[(١)] ، وأبو حفص الحداد النيسابورى ، وأحمد بن خضرويه البلخى ، وسهل بن عبد الله التسترى[(٢)] ، ويوسف بن الحسين الرازى ، وأبو بكر بن طاهر الأبهرى[(٣)] ، وعلى ابن سهل بن الأزهر الأصفهانى ، وعلى بن محمد البارزى ، وأبو بكر الكتانى الدينورى ، وأبو محمد بن الحسن بن محمد الرحانى ، والعباس بن الفضل بن قتيبة ابن منصور الدينورى ، وكهمس بن على الهمدانى ، والحسن بن على بن يزدانيار رضى الله عنهم أجمعين .

= كان من المشايخ الكبار مجاب الدعوة يستشفى بقبره ، يقول البغداديون : قبر معروف ، ترياق مجرب .

وكان من موالى على بن موسى الرضا رضى الله عنه، مات سنة ٢٠٠ هـ وقيل سنة ٢٠١ هـ ،وكان استاذ السرى السقطى .

وكان معروف الكرخى أبواه نصرانيان فسلموا معروفا إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له قل ثالث ثلاثة فيقول : بل هو واحد فضربه المعلم يوما ضربا مبرحاً فهرب معروف فكان آبواه يقولان :ليته يرجع إلينا على أى دين يشاء فنوافقه عليه ثم إنه أسلم على يدى على بن موسى الرضا ورجع إلى منزله ودق الباب فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقالوا على أى دين جئت فقال على الدين الحنيفى . فأسلم أبواه .

(١) كان جده مجوسيا أسلم وكانوا ثلاثة إخوة : آدم وطيفور وعلى وكلهم كانوا زهاداً عباداً وأبو يزيد كان أجلهم حالا ، قيل: مات سنة ٢٦١ هـ، وقيل:سنة ٢٣٤ هـ . ذهب أبو يزيد مرة لمشاهدة رجل شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد فمضى إليه فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال :
« هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على مايدعيه ؟ !

وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة .

(٢) هو أبو محمد سهل بن عبدالله التسترى . أحد أئمة القوم لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع وكان صاحب كرامات لقى ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج ، توفى كما قيل سنة ٢٨٣ هـ، أو سنة ٢٧٣ هـ .

أما شعاره المجرب فهو ترديد الكلمات التالية : « الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى »

(٣) هو أبو بكر عبدالله بن طاهر الأبهرى من أقران الشبلى من مشايخ الجبل عالم ورع صحب يوسف بن الحسين وغيره مات بقرب من سنة ٣٣٠ هـ .

Marfat.com

الباب الثالث

﴿ فيمن نشر علوم الإشارة كتبا ورسائل ﴾

أبو القاسم الجنيد بن محمد (١) بن الجنيد البغدادى، وأبو الحسين (٢) أحمد بن محمد ابن عبد الصمد النورى وأبو سعيد أحمد (٣) بن عيسى الخراز ويقال له : لسان التصوف وأبو محمد (٤) رويم بن محمد ، وأبو العباس أحمد بن عطاء البغدادى ،

---

(١) هو ، حسبما يرى القشيرى ، سيد هذه الطائفة ، وإمامهم .

أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريرى وكان فقيها على مذهب أبى ثور وكان يفتى بحضرته فى حلقته وهو ابن عشرين سنة صحب خاله السرى والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب مات سنة ٢٩٧ هـ .

ذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال : « أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل ، فقال الجنيد إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال » .

وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها .

ومن أقواله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام

(٢) بغدادى المولد والمنشأ بغوى الأصل ، صحب السرى السقطى بن أبى الحوارى وكان من أقران الجنيد رحمه الله مات سنة ٢٩٥ وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان .

قال النورى : التصوف ترك كل حظ للنفس وقال : أعز الأشياء فى زمننا شيئان عالم يعمل بعلمه وعارف ينطق عن حقيقة وقال : من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه .

(٣) يطلق عليه : « لسان التصوف » وهو من أهل بغداد صحب ذا النون المصرى والنباجى وأباعبيد البسرى والسرى وبشر وغيرهم مات سنة ٢٧٧ هـ .

ومن أقواله : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل .

(٤) بغدادى من أجلة المشايخ مات سنة ٣٠٣ هـ وكان مقرئا فقيها على مذهب داود . قال : « من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه فى الأحكام ويضيق على نفسه فيها فإن التوسعة عليهم اتباع العلم والتضييق على نفسه من حكم الورع » .

وسئل رويم عن الفتوة فقال : « أن تعذر إخوانك فى زلاتهم ، ولاتعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه » — وقال : « الصبر ترك الشكوى والرضا استلذاذ البلوى واليقين هو المشاهدة والمحبة الموافقة فى جميع الأحوال » . وأنشد .

ولوقلتَ لى : متْ ، متُّ سمعا وطاعة   وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

Marfat.com

وأبو[1] عبد الله عمرو بن عثمان المكى ، وأبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسى ، وأبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجورى ، وأبومحمد الحسن[2] بن محمد الجريرى ، وأبو[3] عبد الله محمد بن على الكتانى ،وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد[4] الخواص ، وأبو على الأوراجى ، وأبو بكر محمد بن موسى[5] الواسطى ، وأبو عبد الله الهاشمى ، وأبو عبد الله هيكل القرشى ، وأبو على الروذبارى[6] ، وأبو بكر القحطى ،

---

(١) لقى أبا عبد الله النباجى وصحب أباسعيد الخراز وغيره ، شيخ القوم وإمام الطائفة فى الأصول والطريقة . مات ببغداد سنة ٢٩١ هـ .

(٢) من كبار أصحاب الجنيد وصحب سهل بن عبدالله أقعد بعد الجنيد فى مكانه وكان عالما بعلوم هذه الطائفة كبير الحال مات سنة ٣١١ هـ .

ومن أقواله : أدل الأشياء على الله تعالى ثلاثة : ملكه الظاهر ؛ ثم تدبيره فى ملكه ؛ ثم كلامه الذى يستوفى كل شىء .

(٣) بغدادى الأصل ، صحب الجنيد والخراز والنورى وجاور بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢ هـ كان أحد الأئمة وكان يقال عنه : « الكتانى سراج الحرم » .

ومن أقواله : « الغافلون يعيشون فى حلم الله ، والذاكرون يعيشون فى رحمة الله والعارفون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله » .

(٤) من أقران الجنيد والنورى وله فى التوكل والرياضات حظ كبير . مات بالرى سنة ٢٩١هـ .

ومن أقواله : « ليس العلم بكثرة الرواية إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم » . و « دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ،وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين » .

(٥) خراسانى الأصل من فرغانة صحب الجنيد والنورى عالم كبير الشأن أقام بمرو ومات بها بعد سنة ٣٢٠ هـ .

ومن أقواله : « الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب » .

ومن أقواله الغريبة الطريفة : « أربعة أشياء لاتليق بالمعرفة : الزهد ، والصبر ، والتوكل ، والرضا ؛ لأن كل ذلك من صفة الأشباح » .

(٦) هوأبو على أحمد بن محمد الروذبارى بغدادى أقام بمصر ومات بهاسنة ٣٢٢ هـ . صحب الجنيد والنورى وابن الجلاء .

وهو أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة ولقد سئل مرة عمن يسمع الملاهى ويقول هى لى حلال لأنى وصلت إلى درجة لاتؤثر فى اختلاف الأحوال ؟ فقال : « نعم ، قد وصل ولكن إلى سقر » .

وقال عن التصوف : « هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشىء من الهزل »

وقال : « كان أستاذى فى التصوف الجنيد ، وفى الفقه أبو العباس ابن سريج ، وفى الأدب ثعلب ، وفى الحديث إبراهيم الحربى » .

Marfat.com

وأبو بكر[١] الشبلى ، وهو دلف بن جحدر رضوان الله عليهم أجمعين .

الباب الرابع

﴿ فيمن صنف فى المعاملات ﴾

أبو محمد عبد الله[٢] بن محمد ، وأبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكيان ، وعبد الله بن خبيق الأنطاكى ، والحارث بن أسد[٣] المحاسبى ، ويحيى[٤] بن معاذ الرازى ، وأبو بكر محمد بن عمر بن الفضل[٥] الوراق الترمذى ، وأبو عثمان سعيد ابن إسماعيل الرازى ، وأبو عبد الله محمد[٦] بن على الترمذى ،

(١) بغدادى المولد والمنشأ وأصله من أسروشنة ، صحب الجنيد ومن فى عصره وكان شيخ عصره حالا وظرفاً وعلما ، مالكى المذهب عاش سبعا وثمانين سنة ومات سنة ٣٣٤ وقبره ببغداد . وكان الشبلى إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول : « هذا شهر عظمه ربى فأنا أول من يعظمه » .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز من أهل الرى جاور بمكة صحب أبا حفص وأبا عمران الكبير وكان من المتورعين ومات قبل سنة ٣١٠ هـ .
ومن أقواله : « الجوع طعام الزاهدين والذكر طعام العارفين » .

(٣) هو أبو عبد الله الحارث ابن أسد المحاسبى . عديم النظير فى زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا ، بصرى الأصل ، مات ببغداد سنة ٢٤٣ .
قال أبو عبد الله بن خفيف : « اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبى والجنيد بن محمد وأبو محمد رويم وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكى لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق » .
ومن أقوال المحاسبى : « من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ — نسيج وحده فى وقته له لسان فى الرجاء خصوصا وكلام فى المعرفة خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ هـ .
ومن أقواله : « كيف يكون زاهدا من لا ورع له ، تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك » .
ومنها : « الفوت أشد من الموت لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق » .

(٥) أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضرويه وغيره وله تصانيف فى الرياضات .
ومن أقواله : من أرضى الجوارح بالشهوات غرس فى قلبه شجر الندامات .

(٦) من كبار الشيوخ وله تصانيف فى علوم القوم صحب أبا تراب النخشبى وأحمد بن خضرويه وابن الجلاء وغيرهم . ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى وكما أن مولده لا يعرف بالضبط فإن وفاته لا تعرف كذلك بالضبط والمرجح أنه مات حوالى سنة ٢٩٦ هـ .
ومن أقواله . ماصنفت حرفا عن تدبير ولا لينسب إلى شىء منه ولكن كان إذا اشتد على وقتى أتسلى به .

Marfat.com

وأبو عبد الله[1] محمد بن الفضل البلخى ، وأبو على الجوزجانى ، وأبو القاسم ابن إسحاق بن محمد الحكيم السمرقندى .

وهؤلاء هم الأعلام المذكورون المشهورون ، المشهود لهم بالفضل ، الذين جمعوا علوم المواريث إلى علوم الاكتساب .

سمعوا الحديث ، وجمعوا الفقه ، والكلام ، واللغة ، وعلم القرآن ؛ تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم .

ولم نذكر المتأخرين وأهل العصر وإن لم يكونوا بدون من ذكرنا علما ، لأن الشهود يغنى عن الخبر عنهم .

وبالله التوفيق .

الباب الخامس

﴿ شرح قولهم فى التوحيد ﴾

اجتمعت الصوفية على أن الله واحد أحد ، فرد صمد ، قديم عالم ، قادر حىّ ، سميع بصير ، عزيز عظيم ، جليل كبير ، جواد رؤوف ، متكبّر جبّار ، باق أول ، إله سيد ، مالك ربّ ، رحمٰن رحيم ، مريد حكيم ، متكلّم ، خالق رزاق ؛ موصوف بكل ماوصف به نفسه من صفاته ، مسمّى بكل ماسمّى به نفسه ، لم يزل قديما بأسمائه وصفاته ، غيرُ مُشْبِهٍ للخلق بوجه من الوجوه . لا تشبه ذاتُه الذوات ولا صفتهُ الصفات ، لا يجرى عليه شىء من سِمات المخلوقين الدالة على حدثهم . لم يزل سابقا متقدّما للمحدَثات ، موجوداً قبل كل شىء ، لا قديم غيره ولا إله سواه ،

(١) بلخى الأصل أخرج منها فدخل سمرقند ومات بها ، وصحب أحمد بن خضرويه وغيره ، وكان أبو عثمان الحيرى يميل إليه جدا ، مات سنة ٣١٩ هـ .

ومن أقواله : « ذهاب الإسلام من أربعة لايعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ويمنعون الناس من التعلم » .

Marfat.com

ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا صورة ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض . لا اجتماع له ولا افتراق ، لا يتحرك ولا يسكن ، ولا ينقص ولا يزداد ، ليس بذى أبعاض ولا أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، ولا بذى جهات ولا أماكن ، لا تجرى عليه الآفات ، ولا تأخذه السِّنات ، ولا تداوله الأوقات ، ولا تعيِّنه الإشارات ، لا يحويه مكان ، ولا يجرى عليه زمان . لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن . لا تحيط به الأفكار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الأبصار .

وقال بعض الكبراء فى كلام له : لم يسبقه قبلٌ ، ولا يقطعه بعدٌ ، ولا يصادره مِن [١] ولا يوافقه عن [٢] ، ولا يلاصقه إلى [٣] ، ولا يحله فى [٤] ، ولا يوقفه إذ [٥] ، ولا يؤامره إن [٦] ، ولا يُظلّه فوق ، ولا يُقلّه [٧] تحت ، ولا يقابله حذاء ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحدّه أمام ، ولا يظهره قبل [٨] ، ولا يفنيه بعد ، ولا يجمعه كلّ ، ولا يوجده كان [٩] ، ولا يفقده ليس ، ولا يستره خفاء . تقدّم الحدثَ قِدمُه ، والعدمَ وجودُه ، والغايةَ أزلُه .

إن قلت : متى ، فقد سبق الوقتَ كونُه .

وإن قلت : قبل فالقبلُ بعده .

وإن قلت : هو فالهاء والواو خلقُه .

وإن قلت : كيف فقد احتجب عن الوصف بالكيفية ذاتُه .

---

(١) لا تفيد : أنه مبدأ ومصدر حقيقة لما فى ذلك من التحديد .
(٢) لا يتفق معه تعالى : عن لما فى ذلك من المجاوزة التى تفيد التحديد .
(٣) لأن إلى : تدل حقيقة على الغاية والنهاية ، وذلك تحديد له تعالى .
(٤) لأن فى : حقيقة للظرفية ، وهو تعالى ليس ظرفا ولا مظروفا لشىء أو فى شىء .
(٥) لأن إذ : لتحديد وقت خاص وهو تعالى لا يحدده زمان .
(٦) إن فى أصلها تفيد الشك وهو مستحيل عليه .
(٧) لا يحمله .
(٨) لأنه قبل الزمان .
(٩) لأن كان : تفيد حدوث الوجود ، وهو من قبل كان : موجودا .

Marfat.com

وإن قلت : أين فقد تقدّم المكانَ وجودُه .

وإن قلت : ماهو فقد باين الأشياءَ هويتهُ .

لا يجتمع صفتان لغيره فى وقت ولا يكون بهما على التضادّ . فهو باطن فى ظهوره ، ظاهر فى استتاره ، فهو : الظاهر الباطن ، القريب البعيد ، امتناعا بذلك من الخلق أن يشبهوه .

فعله من غير مباشرة ، وتفهيمه من غير ملاقاة ، وهدايته من غير إيماء .

لا تنازعه الهمم ، ولا تخالطه الأفكار .

ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف .

وأجمعوا على أنه لا تدركه العيون ، ولا تهجم عليه الظنون ، ولا تتغيّر صفاتُه ، ولا تتبدّل أسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولا يزال كذلك ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

الباب السادس

﴿ شرح قولهم فى الصفات ﴾

أجمعوا على أن لله صفاتٍ على الحقيقة هو بها موصوف : من العلم ، والقدرة ، والقوة ، والعز ، والحلم ، والحكمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقدم ، والحياة ، والإرادة ، والمشيئة ، والكلام .

وأنها ليست بأجسام ، ولا أعراض ، ولا جواهر ، كما أن ذاتَه ليس بجسم ، ولا عرض ، ولا جوهر .

وأن له سمعا وبصرا ، ووجها ويدا ، على الحقيقة ، ليس كالأسماع والأبصار والأيدى والوجوه .

وأجمعوا أنها صفاتٌ لله وليست بجوارح ، ولا أعضاء ، ولا أجزاء .

وأجمعوا أنها ليست هى هو ولا غيره وليس معنى إثباتها أنه محتاج إليها وأنه يفعل الأشياء بها ، ولكن معناها : نفى أضدادها وإثباتها فى أنفسها ، وأنها قائمات به .

ليس معنى العلم نفى الجهل فقط ، ولا معنى القدرة بنفىَ العجز ، ولكن إثبات العلم والقدرة .

ولو كان بنفى الجهل عالما ، وبنفى العجز قادرا ، لكان المراد نفى الجهل والعجز عنه : عالما وقادرا .

وكذلك جميع الصفات .

وليس وصفنا له بهذه الصفات صفةً له ، بل وصفُنا صفتُنا وحكاية عن صفة قائمة به ، ومن جعل صفة الله وصفه له من غير أن يثبت لله صفة على الحقيقة ، فهو كاذب عليه فى الحقيقة ، وذاكر له بغير وصفه، وليس هذا كالذكر ، فيكون مذكورا بذكر فى غيره لأن الذكر صفة الذاكر وليس بصفة للمذكور ، والمذكور مذكور بذكر الذاكر ، والموصوف ليس بموصوف بوصف الواصف ، ولو كان وصف الواصف صفة له لكانت أوصاف المشركين والكفرة صفاتٍ له ، كنحو الزوجة والولد والأنداد .

وقد نزّه الله تعالى نفسه عن وصفهم له فقال:﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١) فهو جل وعز موصوف بصفة قائمة به ليست ببائنة عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾(٢)، وقال : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾(٣)، وقال : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾(٤) ، وقال : ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(٥). ﴿ذُو الْفَضْلِ

---

(١) سورة الأنعام (٦ : ١٠٠) .
(٢) سورة البقرة (٢ : ٢٥٦) .
(٣) سورة النساء (٤ : ١٦٤) .
(٤) سورة الملائكة (٣٥ : ١٢) .
(٥) سورة الذاريات (٥١ : ٥٨) .

Marfat.com

العَظِيمِ ﴾ (١) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (٢) ﴿ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (٣) .

وأجمعوا أنها لاتتغاير ولا تماثل ، وليس علمه قدرتَه ، ولا غيرَ قدرته ، وكذلك جميع صفاتِه من السمع، والبصر ، والوجه ، واليد ، ليس سمعُه بصرَه ، ولا غير بصره، كما أنه ، ليس هى هو ولا غيرَه .

واختلفوا فى الإتيان والمجىء والنزول ، فقال الجمهور منهم : إنها صفات له ، كما يليق به ، ولا يعبر عنها بأكثر من التلاوة والرواية ، ويجب الإيمان بها ، ولا يجب البحث عنها .

وقال محمد بن موسى الواسطى : كما أن ذاته غيرُ معلولة ، كذلك صفاته غير معلولة. وإظهار الصمدية إياس عن المطالعة على شىء من حقائق الصفات ، أو لطائف الذات.

وأولها بعضهم فقال : معنى الإتيان منه : إيصاله مايريد إليه ، ونزوله إلى الشىء : إقباله عليه ، وقربه : كرامته ، وبعده : إهانته ، وعلى هذا جميع هذه الصفات المتشابهة .

الباب السابع

﴿ اختلافهم فى أنه لم يزل خالقا ﴾

واختلفوا فى أنه لم يزل خالقا فقال الجمهور منهم، والأكثرون من القدماء منهم ، والكبار : إنه لايجوز أن يحدث لله تعالى صفة لم يستحقها فيما لم يزل ، وإنه لم يستحق اسم الخالق لخلقه الخلق ، ولا لإحداث البرايا استحق اسم البارئ ، ولا بتصوير الصور استحق اسم المصور ، ولوكان كذلك لكان ناقصا فيما لم يزل ، وتم بالخلق، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

(١) سورة الحديد (٥٧ : ٢١) .
(٢) سورة الملائكة (٣٥ : ١٠) .
(٣) سورة الرحمن : (٥٥ : ٧٨) .

Marfat.com

وقالوا : إن الله تعالى لم يزل خالقا ، بارئا ، مصوراً ، غفوراً ، رحيما ، شكوراً ، وكذلك جميع صفاته التي وصف بها نفسه يوصف بها كلها في الأزل ؛ كما يوصف بالعلم ، والقدرة ، والعز ، والكبرياء ، والقوة ؛ كذلك يوصف بالتكوين ، والتصوير ، والتخليق ، والإرادة ، والكرم ، والغفران ، والشكر .

ولا يفرقون بين صفة هي فعل ، وبين صفة لا يقال إنها فعل : نحو العظمة ، والجلال ، والعلم ، والقدرة .

وكذلك : إنه لما ثبت أنه سميع ، بصير ، قادر ، خالق ، بارئ ، مصوّر ؛ وأنه مدح له ، فلو استوجب ذلك بالخلق ، والمصوّر ، والمبرئ لكان محتاجا إلى الخلق ، والحاجة أمارة الحدث .

وأخرى : أن ذلك يوجب التغيّر والزوال من حال إلى حال ؛ فيكون غيرَ خالق ثم يكون خالقاً ؛ وغير مريد ثم يكون مريداً ؛ وذلك نحو الأفول الذي انتفى منه خليله إبراهيم عليه السلام ، بقوله : ﴿ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ (١) ﴾ .

والخلق ، والتكوين ، والفعل ، صفات لله تعالى ، وهو بها في الأزل موصوف والفعل غير المفعول ، وكذلك التخليق ، والتكوين ؛ ولو كانا جميعاً واحداً لكان كون المكوّنات بأنفسها ، لأنه لم يكن من الله إليها معنى سوى أنها لم تكن فكانت . .

ومنع بعضهم : من أن يكون فيما لم يزل خالقاً وقال : إنه يوجب كون الخلق معه في القدم .

وأجمعوا أنه لم يزل مالكا إلٰها ربًا ، ولا مربوب ولا مملوك ، وكذلك يجوز أن يكون خالقاً بارئاً مصوّراً ولا مخلوق ولا مبروء ولا مصوّر .

---

(١) سورة الأنعام (٦ : ٧٦) .

Marfat.com

الباب الثامن

﴿ اختلافهم في الأسماء ﴾

واختلفوا في الأسماء ، فقال بعضهم : أسماء الله ليست هي الله ولا غيره كما قالوا في الصفات ، وقال بعضهم : أسماء الله هي الله .

الباب التاسع

﴿ قولهم في القرآن ﴾

أجمعوا أن القرآن كلام الله ، تعالى ، على الحقيقة ، وأنه ليس بمخلوق ، ولا محدث ولا حدث .

وأنه متلو بألسنتنا ، مكتوب في مصاحفنا ، محفوظ في صدورنا ، غير حال فيها كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود في مساجدنا ، غير حال فيها .

وأجمعوا أنه ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض .

الباب العاشر

﴿ اختلافهم في الكلام ماهو ﴾

واختلفوا في الكلام : ماهو !

فقال الأكثرون منهم كلام الله : صفة الله لذاته لم يزل وإنه لا يشبه كلام المخلوقين بوجه من الوجوه ، وليست له مائية كما أن ذاته ليست لها مائية إلا من جهة الإثبات [1] .

---

(١) وذلك تحقيقا للوحدة بكل معناها ونفيا للتركيب .

وقال بعضهم : كلام الله : أمر ونهى ، وخبر ، ووعد ووعيد وقصص وأمثال ، والله تعالى لم يزل آمراً ناهياً ، مخبراً ، واعداً موعداً ، حامداً ، ذامّا ؛ إذا خُلقتم وبلغتْ عقولُكم فافعلوا كذا ، وأنتم مذمومون على معاصيكم مثابون على طاعتكم إذا خُلقتم ، كما أنّا مأمورون مخاطبون بما نزل من القرآن على النبى ، صلى الله عليه وسلم ولم نُخلق بعدُ ولم نكن موجودين .

وأجمع الجمهور منهم على أن كلام الله ، تعالى ، ليس بحروف ولاصوت ولاهجاء بل الحروف والصوت والهجاء دلالات على الكلام ، وأنها لذوى الآلات والجوارح التى هى : اللهوات والشفاه والألسنة ، والله تعالى ليس بذى جارحة ، ولامحتاج إلى آلة ، فليس كلامه بحروف ولاصوت .

وقال بعض كبرائهم فى الكلام له : من تكلم بالحروف فهو معلول ، ومن كان كلامه باعتقاب فهو مضطرّ .

وقالت طائفة منهم : كلام الله حروف وصوت وزعموا أنه لايعرف كلامه إلا كذلك مع إقرارهم أنه صفة الله، تعالى ، فى ذاته غير مخلوق ، وهذا قول حارث المحاسبى ، ومن المتأخرين ابن سالم .

والأصل فى هذا : أنه لما ثبت أن الله ، تعالى ، قديم ، وأنه غير مشبه للخلق من جميع الوجوه ، كذلك صفاته : لاتشبه صفات المخلوقين ؛ فلايكون كلامه حروفا وصوتا ككلام المخلوقين .

ولما أثبت الله لنفسه كلاما بقوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً [1] ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [2] ﴾ ، وقال : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ [3] ﴾ ، وجب أن يكون موصوفا به لم يزل ، لأنه لولم يكن

(١) سورة النساء (٣ : ١٦٢) .
(٢) سورة النحل (١٦ : ٤٢) .
(٣) سورة التوبة (٩ : ٢٦) .

Marfat.com

موصوفا به فيما لم يزل لكان كلامه كلام المحدثين ، ولكان فى الأزل موصوفا بضدّه من سكوت أوآفة .

ولما ثبت أنه غير متغير ، وأن ذاته ليست بمحل للحوادث ، وجب أن لا يكون ساكتا ، ثم صار متكلما ، فاذا ثبت كلامه ، وثبت أنه ليس بمحدث ، وجب الإقرار به ، ولما لم يثبت أنه حروف وصوت وجب الإمساك عنه .

ثم القرآن : ينصرف فى اللغة على وجوه ، منها :

مصدر القراءة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [1] ﴾ أى قراءته .

والحروف المعجمة فى المصاحف : تسمّى قرآنا ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتسافروا بالقرآن إلى أرض العدو » .

ويسمّى كلام الله قرآنا .

فكل قرآن سوى كلام الله : فمحدث مخلوق، والقرآن الذى هو كلام الله : فغير محدث ولا مخلوق .

والقرآن إذا أرسل وأطلق لم يفهم منه غير كلام الله تعالى ، فهو إذاً غير مخلوق ، والوقف فيه لأحد أمرين : إما أن يقف فيه وهو يصفه بصفة المحدث والمخلوق فهو عنده مخلوق ، ووقوفه تقية ، أو يقف وهو منطو على أنه صفة لله فى ذاته ، فلا معنى لوقوفه عن عبارة الخلق والنطق به ، اللهم إلا أن ينطوى على أنه صفة لله ، وصفات الله غير مخلوقة ، ولم يمتحن بناف يجب عليه إثباته ، فيقول : القرآن كلام الله ، ويسكت : إذ لم يأت بغير مخلوق رواية ولا تايت به آية ، فهو عند ذلك مصيب .

---

(١) سورة القيامة (٧٥ : ١٨) .

Marfat.com

الباب الحادى عشر

﴿ قولهم فى الرؤية ﴾

أجمعوا على أن الله تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى ، لقوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾(١)

وجوّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ، وإنما جاز فى العقل ، لأنه موجود ، وكل موجود فجائز رؤيته إذا وضع الله تعال فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٢) جهلا وكفراً ، ولما عاق الله تعالى الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾(٢) ، وكان ممكنا فى العقل استقراره لو أقرّه الله وجب أن تكون الرؤية المعلقة به جائزة فى العقل ممكنة ، فإذا ثبت جوازه فى العقل ، ثم جاء السمع بوجوبه بقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾(٥) ، وجاءت الرواية بأنها الرؤية ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة : والأخبار فى هذا مشهورة متواترة وجب القول به والإيمان والتصديق له ، وما تأوّلت النافية لها فمستحيل، كقولهم فى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، أى إلى ثواب ربها ناظرة ، لأن ثواب الله غير الله ، وقولهم فى : ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ : سؤال

---

(١) سورة يونس (١٠ : ٢٧)

(٢) سورة الأعراف (٧ : ١٣٩)

(٣) سورة القيامة (٧٥ : ٢٢ ـ ٢٣)

(٤) سورة المطففين (٨٣ : ١٥)

(٥) سورة يونس (١٠ : ٢٧)

Marfat.com

آية ، فإنه قد أراه آياته ، وقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ﴾ : أنه كما لاتدركه الأبصار فى الدنيا كذلك فى الآخرة ، وإنما نفى الله تعالى الإدراك بالأبصار ، لأن الإدراك يوجب كيفية وإحاطة ، فنفى مايوجب الكيفية والإحاطة دون الرؤية التى ليست فيها كيفية وإحاطة .

وأجمعوا أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان ، لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم ، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا فى أفضل المكان ، ولو أعطوا فى الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنّة الباقية فرق ، ولما منع الله سبحانه كليمه موسى ، عليه السلام ، ذلك فى الدنيا، وكان من هو دونه أحرى .

وأخرى أن الدنيا دار فناء ، ولا يجوز أن يرى الباقى فى الدار الفانية ، ولو رأوه فى الدنيا لكان الإيمان به ضرورة .

والجملة أن الله تعالى أخبر أنها تكون فى الآخرة ، ولم يخبر أنها تكون فى الدنيا فوجب الانتهاء إلى ما أخبر الله تعالى به .

الباب الثانى عشر

﴿ اختلاف قولهم فى رؤية النبى عليه السلام ﴾

واختلفوا فى النبى صلى الله عليه وسلم : هل رأى ربه ليلة المسرى :

فقال الجمهور منهم والكبار : إنه لم يره محمد صلى الله عليه وسلم ببصره ،ولا أحد من الخلائق فى الدنيا ، على ما روى عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب . منهم الجنيد ، والنورى ، وأبو سعيد الخراز .

وقال بعضهم : رآه النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المسرى ، وإنه خُصَّ من بين الخلائق بالرؤية كما خص موسى عليه السلام بالكلام ، واحتجوا بخبر ابن عباس وأسماء وأنس ، منهم أبو عبد الله القرشى والشبلى وبعض المتأخرين .

Marfat.com

وقال بعضهم : رآه بقلبه ولم يره ببصره، واستدلّ بقوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (١) .

ولا نعلم أحداً من مشايخ هذه العصبة المعروفين منهم والمتحققين به ، ولم نر فى كتبهم ، ولا مصنفاتهم ولا رسائلهم ، ولا فى الحكايات الصحيحة عنهم ، ولا سمعنا ممن أدركنا منهم ، زعم أن الله تعالى يرى فى الدنيا أو رآه أحد من الخلق ، إلا طائفة لم يعرفوا بأعيانهم .

بل زعم بعض الناس أن قوما من الصوفية ادّعوها لأنفسهم ، وقد أطبق المشايخ كلهم على تضليل من قال ذلك وتكذيب من ادّعاه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، منهم أبو سعيد الخراز، وللجنيد فى تكذيب من ادّعاه وتضليله رسائل وكلام كثير .

وزعموا أن من ادّعى ذلك فلم يعرف الله عز وجل ، وهذه كتبهم تشهد على ذلك .

الباب الثالث عشر

﴿ قولهم فى القدر وخلق الأفعال ﴾

أجمعوا أن الله تعالى ، خالق لأفعال العباد كلها ، كما أنه خالق لأعيانهم ، وأن كل ما يفعلونه من خير وشرّ فبقضاء الله وقدره ، وإرادته ومشيئته ، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مربوبين ولا مخلوقين ، وقال جل وعز : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٣) ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ .

---

(١) سورة النجم (٥٣ : ١١)
(٢) سورة الرعد (١٣ : ١٧)
(٣) سورة القمر (٥٤ : ٤٩) .

Marfat.com

فلما كانت أفعالهم أشياء ، وجب أن يكون الله خالقها ، ولو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله جل وعز خالق بعض الأشياء دون جميعها ، ولكان قوله : ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كذبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان ، فلو كان الله تعالى خالق الأعيان ، والعباد خالقي الأفعال ، لكان الخلق أولى بصفة المدح فى الخلق من الله تعالى ، ولكان خلق العباد أكثر من خلق الله ، ولو كانوا كذلك لكانوا أتمّ قدرة من الله تعالى، وأكثر خلقا منه ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١) ، فنفى أن يكون خالقا غيره ، وقال الله تعالى : ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ (٢) ، فأخبر أنه قدر سير العباد وقال : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣) ، وقال : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٤) .

فدلّ أن مما خلق شرّا ، وقال : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ (٥) أى خلقنا الغفلة فيه ، وقال : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ (٦) ، فأخبر أن قولهم ، وسرّهم وجهرهم : خلقٌ له .

وقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله أرأيت مانعمل فيه ، أعلى أمر قد فُرغ منه ، أو أمر مبتدأ ؟ فقال « على أمر قد فرغ منه » .

فقال عمر أفلا نتّكل وندع العمل ؟

فقال : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » .

---

(١) سورة الرعد (١٣ : ١٧) .
(٢) سورة سبأ (٣٤ : ١٧) .
(٣) سورة الصافات (٣٧ : ٩٤) .
(٤) سورة الفلق (١١٣ : ٢) .
(٥) سورة الكهف (١٨ : ٢٧) .
(٦) سورة الملك (٣٧ : ١٣) .

Marfat.com

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت رُقًى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، هل يردّ من قدر الله ؟

قال : « إنه من قدر الله » .

وقال : « والله لا يؤمن أحد حتى يؤمن بالله وبالقدر خيره وشرّه من الله » .

ولما جاز أن يخلق الله تعالى ، العين الذى هو شرّ ، جاز أن يخلق الفعل الذى هو شرّ .

ومجمعٌ على أن حركة المرتعش خلقُ الله ، فكذلك حركة غيره ، غير أن الله تعالى خالق لهذا حركة واختياراً ، وخلق للآخر حركة ولم يخلق له اختياراً .

قال أبو بكر الواسطى ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[1] قال : من ادّعى شيئا من ملكه وهو ماسكن فى الليل والنهار من خطْرة وحركة أنها له أو به أو إليه أو منه ، فقد جاذب القبضة ، وأوهن العزة .

وفى قوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[2] خلق إيجاد وأمر إطلاق ، مالم يأمر الجوارح أمر إطلاق لم توافقه فى شيء ، كذلك المخالفة .

الباب الرابع عشر
﴿ قولهم فى الاستطاعة ﴾

أجمعوا أنهم لا يتنفسون نفَساً ، ولا يطرفون طرفةً ، ولا يتحركون حركة ، إلا بقوة يحدثها الله تعالى ، فيهم ، واستطاعة يخلقها الله لهم ، مع أفعالهم ، لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ، ولا يوجد الفعل إلا بها ، ولولا ذلك لكانوا بصفة الله تعالى ،

---

(١) سورة الأنعام (٦ : ١٣) .
(٢) الأعراف (٧ : ٥٢) .

Marfat.com

يفعلون ماشاءوا ويحكمون ماأرادوا ، ولم يكن الله القوى القدير بقوله : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَايَشَاءُ ﴾ [(١)] ، أولى من عبد حقير ضعيف فقير .

ولو كانت الاستطاعة هى الأعضاء السليمة لاستوى فى الفعل كل ذى أعضاء سليمة ، فلما رأينا ذوى أعضاء سليمة ، ولم نر أفعالهم ، ثبت أن الاستطاعة : مايرد من القوة على الأعضاء السليمة ، وتلك القوة متفاضلة فى الزيادة والنقصان ، ووقت دون وقت ، وهذا يشاهده كلٌّ من نفسه .

ثم لما كانت القوة عرضا ، والعرض لا يبقى بنفسه ولا ببقاء فيه ، لأن مالا يقوم بنفسه ولا يقوم به غيره . لا يبقى ببقاء فى غيره ، لأن بقاء غيره ليس ببقاء له ، بطل أن يكون له بقاء ، وإذا كان كذلك وجب أن تكون قوة كل فعل غير قوة غيره .

ولولا ذلك لم تكن للخلق حاجة إلى الله تعالى ، عند أفعالهم ، ولا كانوا فقراء إليه ، ولكان قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : لا معنى له .

ولو كانت القوة قبل الفعل ، وهى لا تبقى لوقت الفعل ، لكان الفعل بقوة معدومة ، ولو كانت كذلك ، لكان وجود الفعل من غير قوة ، وفى ذلك إبطال الربوبية والعبودية جميعا ، لأنه لو كان كذلك لكان يجوز وقوع فعل من غير قوى ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون وجودها بأنفسها من غير فاعل ، وقد قال الله تعالى فى قصة موسى والعبد الصالح : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [(٣)] يريد لا تقوى عليه .

وأجمعوا أن لهم أفعالا واكتسابا على الحقيقة ، هم بها مثابون ، وعليها معاقبون ؛ ولذلك جاء الأمر والنهى ، وعليه ورد الوعد والوعيد .

---

(١) سورة إبراهيم : (٢٧) .
(٢) سورة الكهف : (٦٦) .
(٣) سورة الكهف : (٨٢) .

Marfat.com

ومعنى الاكتساب : أن يفعل بقوة محدثة .

وقال بعضهم : معنى الاكتساب : أن يفعل لجرّ منفعة أو دفع مضرّة ، لقوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (١) .

وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له ، وليسوا بمحمولين عليه ، ولا مُجبَرين فيه ، ولا مستكرهين له .

ومعنى قولنا : مختارون أن الله تعالى ، خلق لنا اختياراً فانتفى الإكراه فيها ، وليس ذلك على التفويض .

قال الحسن بن على رضى الله عنهما : إن الله تعالى ، لايطاع بإكراه ، ولايعصى بغلبة ، ولم يهمل العباد من المملكة .

وقال سهل بن عبد الله : إن الله تعالى ، لم يقوّ الأبرار بالجبر ، إنما قوّاهم باليقين .

وقال بعض الكبراء : من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصى على الله فقد فجر .

الباب الخامس عشر

﴿ قولهم فى الجبر ﴾

وأحال بعضهم الجبر ، وقال : لايكون الجبر إلا بين الممتنعين ، وهو أن يأمر الآمر ويمتنع المأمور ، فيجبره الآمر عليه ، ومعنى الإجبار : أن يستكره الفاعل على إتيان فعل هو له كاره ولغيره مؤثر ، فيختار المجبر إتيان مايكرهه ويترك الذى يحبه ، ولولا إكراهه له وإجباره إياه لفعل المتروك وترك المفعول ولم نجد هذه الصفة فى

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .

Marfat.com

اكتسابهم الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، بل اختار المؤمن الإيمان وأحبه واستحسنه ، وأراده وآثره على ضدّه ، وكره الكفر وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضده .

والله خلق له الاختيار والاستحسان والارادة للإيمان ، والبغض والكراهة والاستقباح للكفر ، قال الله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ (١) ﴾ .

واختار الكافر الكفر واستحسنه ، وأحبه وأراده وآثره على ضدّه ، وكره الإيمان وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضدّه .

والله تعالى خالق ذلك كله ، قال الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ (٢) ﴾ ، وقال: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا (٣) ﴾ .

وليس أحدهما بممنوع عن ضدّ مااختاره ، ولا بمحمول على ما اكتسبه ، ولذلك وجبت حجة الله عليهم ، وحق عليهم القول من ربهم ، ومأوى الكافرين النار بما كانوا يكسبون : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ ، ويفعل الله ما يشاء ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

قال ابن الفرغاني : مامن خطرة ولاحركة إلا بالأمر ، وهو قوله : كُن ، فله الخلق بالأمر ، وله الأمر بالخلق ، والخلق صفته ، فلم يدع بهذين الحرفين لعاقل يدعى شيئا من الدنيا والآخرة ، لا له ، ولا به ، ولا إليه ، فاعلم أنه لا إله إلا الله.

---

(١) سورة الحجرات ٧

(٢) سورة الأنعام ١٠٧

(٣) سورة الأنعام ١٢٥

Marfat.com

الباب السادس عشر

﴿ قولهم فى الأصلح ﴾

أجمعوا على أن الله تعالى ، يفعل بعباده مايشاء ويحكم فيهم بما يريد ، كان ذلك أصلح لهم أولم يكن ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (١) ﴾ .

ولولا ذلك لم يكن بين العبد والرب فرق ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا (٢) ﴾ وقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٤) .

والقول بالأصلح يوجب نهاية القدرة (٥) وتنفيذ مافى الخزائن ، وتعجيز الله تعالى عن ذلك، لأنه إذا فعل بهم غاية الصلاح فليس وراء الغاية شىء ، فلوأراد أن يزيدهم على ذلك الصلاح صلاحا آخر لم يقدر عليه ، ولم يجد بعد الذى أعطاهم مايعطيهم : مما يصلح لهم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً

وأجمعوا : أن جميع مافعل الله بعباده من الإحسان والصحه والسلامة والإيمان والهداية واللطف : تفضل منه ، ولولم يفعل ذلك لكان جائزاً وليس على الله بواجب ولو كان مايفعل مما يفعل شيئاً واجباً عليه لم يكن مستحقاً للحمد والشكر .

وأجمعوا : أن الثواب والعقاب ليس من جهة الاستحقاق ، لكنه من جهة

(١) سورة الأنبياء : ٢٣

(٢) سورة آل عمران : ١٧٢ .

(٣) سورة التوبة ـ ٥٥

(٤) سورة المائدة ـ ٤١

(٥) : لأن الأصلح : هو الذى لايمكن أن يكون هناك ماهو خير منه فهوتحديد للقدرة .

Marfat.com

المشيئة والفضل [1] والعدل ، لأنهم لايستحقون على أجرام منقطعة عقاباً دائماً ، ولاعلى أفعال معدودة ثواباً دائماً غير معدود .

وأجمعوا : أنه لوعَذَّبَ جميعَ من في السموٰات والأرض لم يكن ظالما لهم ، ولوأدخلَ جميعَ الكافرين الجنة لم يكن ذلك محالا ، لأن الخلق خلقه والأمرَ أمره ، ولكنه أخبر أنه ينعم على المؤمنين أبداً و يعذب الكافرين أبداً ، وهو صادق في قوله ، وخبرهُ صدقٌ ، فوجب أن يفعل بهم ذلك ولايجوز غيره ، لأنه لايكذب في ذلك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وأجمعوا : أنه لا يفعل الأشياء لعلّة ، ولوكان لها علّة لكان للعلّة علة ، إلى ما لايتناهى ، وذلك باطل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [2] ، وقال ﴿ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ﴾ [3] ، وقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [4] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ﴾ [5] .

ولا يكون شيء منه ظلما ولاجوراً ، لأن الظلم إنما صار ظلماً لأنه منهى عنه ، ولأنه وضع الشيء في غير موضعه ؛ والجور إنما كان جوراً لأنه عدل عن الطريق الذي بيّن له ، والمثال الذي مثل له من فوقه ومن هو تحت قدرته ، ولما لم يكن الله تحت قدرة قادر ولا كان فوقه آمر ولازاجر ، لم يكن فيما يفعله ظالما ، ولافي شيء يحكم به جائراً ، ولم يقبح منه شيء لأن القبيح ماقبّحه والحسن ماحسنه .

---

(١) وفي ذلك : قال صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولاأنت يارسول الله : ! قال : ولاأنا ، إلاأن يتغمدني الله بفضله » . وأهل الجنة سيقولون بعد دخولها: « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » كما جاء في القرآن .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١

(٣) سورة الحج ٧٨

(٤) سورة هود ١١٩

(٥) سورة الأعراف ٧٩ .

Marfat.com

وقال بعضهم : القبيح مانهى عنه ، والحسن ماأمر به .

وقال محمد بن موسى : إنما حسنت المستحسنات بتجلّيه ، وقبحت المستقبحات باستتاره ، وإنما هما نعتان يجريان على الأبد بما جريا فى الأزل ، معناه : كل ماردّك إلى الحق من الأشياء فهو : حسن ، وماردّك إلى شئ دونه فهو : قبيح ، فالقبيح والحسن ماحسّنه الله فى الأزل وماقبّحه .

ومعنى آخر : أن المستحسن هو : ماتخلى عن ستر النهى ، فلم يكن بين العبد وبينه ستر ، والقبيح : ما كان وراء الستر ، وهو النهى على معنى قوله عليه السلام : « وعلى الأبواب ستور مرخاة » قيل : الأبواب المفتحة : محارم الله ، والستور : حدوده .

الباب السابع عشر

﴿ قولهم فى الوعد والوعيد ﴾

أجمعوا : أن الوعيد المطلق فى الكفار والمنافقين .

والوعد المطلق فى المؤمنين المحسنين .

وأوجب بعضهم غفران الصغائر باجتناب الكبائر بقوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾(1) الآية ، وجعلها بعضهم كالكبائر فى جواز العقوبة عليها ، لقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا مَافِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ﴾(2) الآية .

وقالوا : معنى قوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ هو الشرك والكفر وهو أنواع كثيرة ، فجاز أن يطلق عليها اسم الجمع ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الخطاب خرج على الجمع ، فكانت كبيرة كل واحد منهم عند الجمع كبائر .

(1) سورة النساء ٣١
(2) سوره البقرة ٢٨٤

Marfat.com

وجوّزوا غفران الكبائر بالمشيئة والشفاعة .

وأوجبوا الخروج من النار لأهل الصلاة لا محالة بإيمانهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[1] ، فجعل المشيئة شرطا فيما دون الشرك .

وجملة قولهم : إنّ المؤمن بين الخوف والرجاء ، يرجو فضل الله فى غفران الكبائر ، ويخاف عدله فى العقوبة على الصغائر ، لأن المغفرة مضمون المشيئة ، ولم يأت مع المشيئة شرط كبيرة ولا صغيرة .

ومن شدّد وغلظ فى شرائط التوبة وارتكاب الصغائر فليس ذلك منهم على إيجاب الوعيد ، بل ذلك على تعظيم الذنب فى وجوب حقّ الله فى الانتهاء عما نهى عنه ، ولم يجعلوا فى الذنوب صغيرة إلا عند نسبة بعضها إلى بعض ، فطالبوا النفوس بإيفاء حقّ الله تعالى ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، والوفاء بما أمر به الله ورؤية التقصير فى شرائط العمل .

وهم مع ذلك كله أرجى الناس للناس ، وأشدّهم خوفا على أنفسهم ، حتى كأنّ الوعيد لم يرد إلا فيهم ، والوعد لم يكن إلا لغيرهم .

قيل للفضيل عشيّة عرفة : كيف ترى حال الناس ؟

قال : مغفورون لولا مكانى فيهم .

وقال السرى السقطى : إنى لأنظر فى المرآة كل يوم مراراً مخافة أن يكون قد اسودّ وجهى .

وقال : لا أحبّ أن أموت حيث أُعْرَفُ مخافة أن لا تقبلنى الأرض فأكون فضيحة .

---

(١) سورة النساء ٤٨

وهم أحسن الناس ظنونا بربهم .

قال يحيى : من لم يحسن بالله ظنّه لم تقرّ بالله عينه .

وهم أسوأ الناس ظنونا بأنفسهم ، وأشدّهم إزراء بها ، لا يرونها أهلا لشىء من الخير ديناً ولا دنيا .

والجملة : أن الله تعالى قال : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ (١) الآية ، أخبر أن المؤمن له عملان : صالح وسيىء ، فالصالح له والسيىء عليه .

وقد وعد الله تعالى على ما له ثوابا ، وأوعد على ما عليه عقابا ، والوعيد حقّ الله تعالى من العباد ، والوعد حق العباد على الله فيما أوجبه على نفسه ، فإن استوفى منهم حقّ نفسه ولم يوفهم حقّهم ، لم يكن ذلك لائقا بفضله مع غناه عنهم وفقرهم إليه ، بل الأليق بفضله والأحرى بكرمه : أن يوفيهم حقوقهم ، ويزيدهم من فضله ، ويهب منهم حق نفسه ، وبذلك أخبر عن نفسه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وفى قوله : ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أنه تفضّل وليس بجزاء .

الباب الثامن عشر

﴿ قولهم فى الشفاعة ﴾

أجمعوا على أن الإقرار بجملة ماذكر الله تعالى فى كتابه ، وجاءت به الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشفاعة واجب ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

---

(١) سورة التوبة ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ٤٠ ..

Marfat.com

رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [١] ، ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ [٢] ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [٣] ، وقول الكفار : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ [٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي » ، وقوله « واختبأت دعوتي الشفاعة لأمّتي » .

وأقروا بالصراط ، وأنه جسر يمدّ على جهنم ، وقرأت عائشة رضى الله عنها : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ [٥] ، قالت : فأين الناس حينئذ يارسول الله ؟ فقال « على الصراط » .

وأقروا بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [٦] ، وإن لم يعلموا كيفية ذلك ، وقولهم فى هذا وأمثاله : مما لا يدرك العباد كيفيته :

آمنّا بما قال الله على ماأراد الله ، وآمنا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماأراد رسول الله [٧] .

---

(١) سورة الضحى ٥ .
(٢) سورة الإسراء ٧٩ .
(٣) سورة الأنبياء ٢٨ .
(٤) سورة الشعراء ١٠٠ .
(٥) سورة إبراهيم ٤٨ .
(٦) سورة الأعراف ٩ .
(٧) قوله : آمنا بما قال الله على ما أراد الله . . .
هـذا هو رأى السلف، أما رأى الخلف فهو التأويل : بمعنى أن اليد تطلق على القدرة ، مثلا ، والوجه على الذات . . .
والأمر فى ذلك يتلخص فى أن السلف والخلف اتفقوا على نفى التشبيه عن الله ، سبحانه وتعالى ، عملا بقوله تعالى : « ليس كمثله شىء » ، وقوله تعالى : « ولم يكن له كفواً أحد » وكما قال تعالى : « ولا يحيطون به علماً » ، وكما قال الأفاضل :
كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك .
إلا أن السلف فوضوا تحديد المعنى المراد إلى الله تعالى ، وذلك لأمرين غاية فى الأهمية :
١ ـ : جواز إرادة أمر آخر عند تحديد المعنى .
٢ ـ : التورع فيما يتعلق بالذات العلية أليق بالمؤمنين . =

Marfat.com

وأقروا : أن الله تعالى يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان على ماجاء فى الحديث .

وأقروا بتأبيد الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان ، وأنهما باقيتان أبد الأبد لا تفنيان ولا تبيدان ، وكذلك أهلوهما باقون فيهما ، خالدون مخلدون ، منعّمون ومعذّبون ، لا ينفد نعيمهم ولا ينقطع عذابهم .

وشهدوا لعامة المؤمنين بالإيمان فى ظاهر أمورهم ، ووكلوا سرائرهم إلى الله تعالى.

وأقروا أن الدار دار إيمان و إسلام ، وأن أهلها مؤمنون مسلمون .

وأهل الكبائر عندهم مسلمون ، مؤمنون بما معهم من الإيمان ، فاسقون بمافيهم من الفسق .

ورأوا الصلاة خلف كل برّ وفاجر .

ورأوا الصلاة على كل من مات من أهل القبلة .

ورأوا الجمعة والجماعات والأعياد واجبة على من لم يكن له عـذر من المسلمين مع كل إمام بر أو فاجر .

وكذلك الجهاد معهم والحجّ .

= وقد جاء فى حديث معناه : « فـكروا فى آثار الله ولا تفـكروا فى ذاته فتهلـكوا » .

وأمر ثالث له أهمية كبرى ، فيما يتعلق بترجيح وجه نظر السلف ، وهو أننا إذا فتحنا باب التأويل ، فسوف يدخل منه كل مدع ، ولا ندرى الحدود التى نقف عندها فيه .

وقد نشأ قوم متأخرون نسبيا ، يزعمون أن آراءهم ، إنما هى عودة إلى آراء السلف ، ويقولون: لله يد لا كأيدينا ، ووجه لا كوجوهنا . . .

ولـكن هذه النزعة بعيدة كل البعد عن نزعة السلف ، ذلك لأن أقل مافيها ، وهو جد خطير : الإشعار الواضح بالتجزئة والتبعيض فيما يتعلق بالذات الإلهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثم هى مثار فتنة واضطراب ونزاع وهى أخيرا إذا لم تـكن التشبيه فإنها أقرب ما يكون إليه ، والواقع : أننا إذا أردنا السلامة فى ديننا ودنيانا ، فلنقل كما قال المؤلف :

« آمنا بما قال الله على ماأراد الله ، وآمنا بما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ماأراد رسول الله » .

Marfat.com

ورأوا الخلافة حقّا ، وأنها فى قريش .

وأجمعوا على تقديم أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

ورأوا الاقتداء بالصحابة والسلف الصالح ، وسكتوا عن القول فيما كان بينهم من التشاجر ، ولم يروا ذلك قادحا فيما سبق لهم من الله عز وجل من الحسنى .

وأقرّوا أن من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة : فهو فى الجنة وأنهم لا يعذّبون بالنار .

ولا يرون الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة [1] .

ويرون الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر واجبا لمن أمكنه بما أمكنه مع شفقة ورأفة ، ورفق ورحمة ، ولطف ولين من القول .

ويؤمنون بعذاب القبر ، وبسؤال منكر ونكير .

وأقروا بمعراج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه عرج به إلى السماء السابعة ، وإلى ماشاء الله ، فى ليلة ، فى اليقظة ، ببدنه .

ويصدّقون بالرؤيا ، وأنها بشارة المؤمنين وإنذار لهم وتوقيف .

وعندهم أن من مات أو قتل فبأجله ، ولا يقولون باخترام الآجال ، وأنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

الباب التاسع عشر

﴿ قولهم فى الأطفال ﴾

وأقروا : أن أطفال المؤمنين مع آبائهم فى الجنة .

---

(١) قوله : ولا يريدن الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة .
لعله يريد : ألا يكون ذلك مبدئيا ، بل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فإن رجعوا عن ظلمهم ، وإلا فالتكتل ضدهم واجب
وإذا نظرنا خلافة الخلفاء الراشدين لوجدناهم يأمرون الناس أن يردوهم عن الظلم **ولو بالسيف وقد قال الصحابة لعمر : والله لو** رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

واختلفوا فى أطفال المشركين ، فمنهم من قال : لا يعذب الله بالنار إلا بعد لزوم الحجة على من عاند وكفر ووجبت عليه الأحكام وأرجأ الأكثرون أمرهم إلى الله تعالى ، وجوّزوا تعذيبهم وتنعيمهم .

وأجمعوا على أن المسح على الخفين حقّ .

وجوّزوا أن يرزق الله الحرام .

وأنكروا الجدال والمراء فى الدين ، والخصومة فى القدر والتنازع فيه .

ورأوا التشاغل بما لهم وعليهم أولى من الخصومات فى الدين (١) .

ورأوا طلب العلم أفضل الأعمال ، وهو علم الوقت بما يجب عليهم ظاهراً و باطناً .

وهم : أشفق الناس على خلق الله : من فصيح وأعجم ، وأبذل الناس بما فى أيديهم ، وأزهدهم عما فى أيدى الناس ، وأشدّهم إعراضا عن الدنيا ، وأكثرهم طلبا للسنة والآثار ، وأحرصهم على اتباعها .

Marfat.com

الباب العشرون

﴿ فيما كلف الله البالغين ﴾

أجمعوا : أن جميع مافرض الله تعالى على العباد فى كتابه ، وأوجبه رسول الله

---

(١) قوله وأنكروا الجدال والمراء فى الدين . . .

لما نزل قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . . » قال المشركون : رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى لأنه عبد من دون الله ، وحكى الله تعالى عنهم نتاشهم على طريق الجدل ، فقال : « وقالوا : أآلهتنا خير أم هو »

ثم نفر من الجدل وبين أنه طريق المعاندين فقال : « ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » الزخرف ـ ٥٨

وهدد الذين يقعون فى الغيبيات فقال : « إن الذين يجادلون فى آياتنا لايخفون علينا »

وقال : « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » الرعد ـ ١٣ والأحاديث كثيرة فى النهى عن الجدل وفى الترغيب فى تركه ولو بحق .

لو نظرنا إلى كتب الكلام لوجدناها ملئت بذلك الجدل المنهى عنه ، وقلما يخرج منها طالب إلاوهو متشكك مضطرب فى عقيدته ، وياحبذا لو سلكنا طريق القرآن والسنة فى حسن العرض بذكر آثار الله وأسراره فى العالمين .

صلى الله عليه وسلم : فرض واجب وحتم لازم على العقلاء البالغين ، لايجوز التخلف عنه ولايسع التفريط فيه بوجه من الوجوه لأحد من الناس : من صدِّيق وولى وعارف وإن بلغ أعلى المراتب ، وأعلى الدرجات ، وأشرف المقامات ، وأرفع المنازل .

وأنه لامقام للعبد تسقط معه آداب الشريعة : من إباحة ماحظر الله ، أوتحليل ماحرم الله ، أوتحريم ماأحل الله ، أوسقوط فرض من غير عذر ولاعلة ، والعذر والعلة : ماأجمع عليه المسلمون وجاءت به أحكام الشريعة .

ومن كان أصفى سرًّا وأعلى رتبة وأشرفَ مقاما : فإنه أشدّ اجتهاداً ، وأخلص عملا ، وأكثر توقيا [1] .

---

(١) إن الموضوع الذى ذكره المؤلف هنا من الأهمية بمكان، وقد سبق أن نبهنا عليه وكتبنا فيه لأنه يثار الآن ولأهميته نقتطف مما كتبنا ما يلى :

غرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط التكاليف الشرعية » وهى مسألة لم تنشأ بين بعض من يزعم التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتسابا باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لاشك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لايختلف فى زعامتهم اثنان ، نجدهم — سواء فى ذلك القدماء منهم والمحدثون — ينكرون الفكرة إنكارا تاما ، ويرونها زيفا وضلالا وانسلاخا عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى الموضوع ، ثم نفصل ، نوعا ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحي ، وهو زعيم الصوفية فى العصر الحديث دون منازع .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية — وكان رجلا مشهورا بالزهد — فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هـذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على مايدعيه ؟ ! » .

ومن كلام أبى يزيد :

« ولو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة ؟ » .

وأجمعوا : أن الأفعال ليست بسبب للسعادة والشقاوة ، وأن السعادة والشقاوة سابقتان بمشيئة الله تعالى لهم ذلك وكتابه عليهم ، كما جاء فى الحديث :

= ويقول سهل التسترى معبرا عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد — سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » فقال الجنيد :

« إن هـذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمـال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ماوصلنا إلى الإمام الغزالى ، فإننا نجده يقول ، فى شىء من التفصيل ، فيـه دقة ، وفيـه استدلال غاية فى القوة :

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى ، قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له :

العلامة الأولى : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيرادا وإصدارا ، وإقداما وإحجاما ، إذ لايمكن سلوك هـذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليـه من أهمل الفرائض ؟ » ! !

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنسانا يطير فى الهواء . ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » ، وهو الحق .

فإذا ماانتهينا أخيرا إلى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، فإننا نجده يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة » . =

Marfat.com

قال عبدالله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هـذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم » ، ثم أجمل على آخرهم فلايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً . وكذلك قال فى أهل النار .

وقال عليه السلام « السعيد من سعد فى بطن أمّه والشقى من شقى فى بطن أمّه » .

وأجمعوا : أنها [1] ليست بموجبة للثواب والعقاب من حيث الاستحقاق ، بل من جهة الفضل ومن جهة إيجاب الله تعالى ذلك .

وأجمعوا : أن نعيم الجنة لمن سبق له من الله السعادة من غير علّة ، وأن عذاب النار لمن سبق له من الله الشقاوة من غير علّة ، كما قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولاأبالى » .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ [2] ،وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [3] .

وقالوا : إنها ، أعنى أفعال العباد . علامات وأمارات على ماسبق لهم من الله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له » .

= والصوفية يتبعون فى كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون لاشك البديهيات التاريخية : من أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

وخير مانختم به هذه الكلمة الآن الحديث النبوى الكريم :

« سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله . فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

(١) أى الأفعال .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٨

(٣) الأنبياء : ١٠١

Marfat.com

وقال الجنيد : الطاعة عاجل بُشراه على ماسبق لهم من الله تعالى ، وكذلك المعصية .

وقال غيره : العبادات . حلية الظواهر ، والحقّ لايبيح تعطيل الجوارح من حلاها .

وقال محمد بن على الكتانى : الأعمال كسوة العبودية ، فمن أبعده الله عند القسمة نزعها ، ومن قرّبه أشفق عليها ولزمها .

وهم مع ذلك مجمعون على أن الله تعالى يثيب عليها و يعاقب ، لأنه وعد على صالحها وأوعد على سيّئها ، فهو ينجز وعده ويحقّق وعيده ، لأنه صادق ، خبره صدق .

وقالوا : على العباد بذل المجهود فى أداء ما كُلِّف وإتيان ماندب إليه بعد التكليف و بعد إتيانها و إيفاء ماعليه تكون المشاهدات ، كما جاء فى الحديث : «من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقال يحيى : لن يصل إلى قلبك روح المعرفة وله عليك حق لم تؤده .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يعامل عباده فى الآخر على حسب ماعاملهم فى الأول ، بدأهم تكرّماً ، وأمرهم ترحماً ، ووعدهم تفضلاً ويزيدهم تكرّماً ، فمن شهد برّه القديم سهل عليه أداء أمره ، ومن لزم أمره أدركه وعده ، ومن فاز بوعده لابد أن يزيده من فضله .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩

(٢) سورة المائدة ٣٥

Marfat.com

وقال سهل بن عبدالله التسترى : من غمض بصره عن الله طرفة عين فلا يهتدى طول عمره .

الباب الحادى والعشرون

﴿ قولهم فى معرفة الله تعالى ﴾

أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل فى حاجته إلى الدليل ، لأنه محدَث ، والمحدَث لايدلّ إلّا على مثله ..

وقال رجل للنورى : ما الدليل على الله ؟

قال : الله .

قال فما العقل ؟

قال العقل عاجز ، والعاجز لا يدلّ إلا على عاجز مثله .

وقال ابن عطاء : العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

وقال غيره : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى المكوِّن ذاب .

وقال أبو بكر القحطبى : من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات[1] ولولا أنه تعرّف إليها بالألطاف لما أدركته من جهة الإثبات .

وأنشدونا لبعض الكبار :

مَنْ رَامَهُ بِالْعَقْلِ مُسْتَرْشِداً سَرَّحَهُ فى حَيْرَةٍ يَلْهُو
وَشَابَ بِالتَّلْبِيس أَسْرَارَهُ يَقولُ مِنْ حَيْرَتِهِ هَلْ هُو

وقال بعض الكبار : لا يعرفه إلا من تعرّف إليه ، ولا يوحِّده إلا من توحد له ، ولا يؤمن به إلا من لطف به ، ولا يصفه إلا من تجلى لسرّه ، ولا يخاص له إلا من جذبه إليه ، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه .

---

(١) أى من جهة الإيمان به بوجوده عن طريق معرفته بآثاره فى خلقه « ولا يحيطون به علماً » سورة طه ١١٠

معنى من تعرّف إليه أى : من تعرّف الله إليه ، ومعنى من توحد له ، أى : أراه أنه واحد .

وقال الجنيد : المعرفة معرفتان معرفة تعرّف ، ومعرفة تعريف ، معنى التعرّف: أن يعرّفهم الله عز وجل نفسه ويعرّفهم الأشياء به ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ (١) . ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته فى الآفاق والأنفس، ثم يحدث فيهم لطفا : تدلهم الأشياء أن لها صانعاً ، وهذه معرفة عامة المؤمنين ، والأولى معرفة الخواصّ . وكلٌّ لم يعرفه فى الحقيقة إلا به .

وهذا كما قال محمد بن واسع : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه .

وقال غيره : مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله .

وقال ابن عطاء : تعرّفَ إلى العامّة بخلقه ، لقوله : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٢) الآية ، وإلى الخاصة بكلامه وصفاته بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ﴾ (٣) ،وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (٥) ، وإلى الأنبياء بنفسه ، كما قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (٦) الآية ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ (٧) الآية وقال بعض الكبراء من أهل المعرفة :

لم يبقَ بَيني وبين الحقِّ تِبيْانِي ولا دليـــلٌ ولا آياتُ بُرهانى
هٰــذا تجلّى طلوعِ الحق نائرةً قدْ أزهرَت فى تلَالِيها بسُلْطانِ

(١) سورة الأنعام : ٧٦
(٢) سورة الغاشية : ١٧
(٣) سورة النساء : ٨٤
(٤) سورة الإسراء : ٨٤
(٥) سورة الأعراف : ١٧٩
(٦) سررة الشورى : ٥٢
(٧) سورة الفرقان : ٤٧

لا يَعرِفُ الحقَّ إلا مَن يُعَرِّفُهُ ... لا يَعْرِفُ القدِيمَ المحدَثُ الفانى
لا يُسْتَدَلُّ على البارى بِصَنْعَتِهِ ... رأيتُم حدَثاً يُنْبى عن أزمان
كانَ الدليلَ لهُ منه إليــــهِ بهِ ... مَنْ شاهَدَ الحقَّ في تنزيلِ فُرْقانِ
كانَ الدَّليلَ لهُ منــــهُ بهِ ولهُ ... حقًّا وَجد ناهُ بلْ عِلماً بِتبيـانِ
هٰذا وُجودِى وَتشريحى وَمُعْتَقَدِى ... هــذا توَحُّدُ توْحـيدِ وَإيمانى
هٰذَا عِبارةُ أهلِ الانفرادِ بهِ ... ذَوِى المعارفِ فى سِرٍّ وَإعْلَانِ
هٰذا وُجودُ وجود الواجدِينَ لهُ ... بَنِى التجانُسِ أصْحـابى وخُلّانى

وقال بعض الـكبراء : إن الله تعالى عرّفنا نفسه بنفسه ،ودلنّا على معرفة نفسه بنفسه ، فقام شاهد المعرفة من المعرفة بالمعرفة بعد تعريف المعرّف بها .

معناه أن المعرفة لم يـكن لها سبب ، غـير أن الله تعالى عرّف العـارف فعرف بتعريفه(١) .

وقال بعض الـكبار من المشايخ : البادى من المـكوّنات معروف بنفسه لهجوم العقل عليه ، والحق أعز من أن تهجم العقول عليه وأنه عرّفنا نفسه : أنه ربّنا فقال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّـكُمْ ﴾(٢) ، ولم يقل : من أنا ؟ فتهجم العقول عليه حين بدا معرّفا ، فلذلك انفرد عن العقول ، وتنزّه عن التحصل غير الإثبات .

وأجمعوا أنه لا يعرفه إلا ذو عقل ، لأن العقل آلة للعبد يعرف به ما عرف ، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى .

---

(١) قوله : غير أن الله تعالى عرف العارف فعرفه بتعريفه . . . وذلك صريح فى قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . . . » ، « الحق من ربك فلا تـكونن من الممترين .

« والله يعلم وأنتم لاتعلمون » ، « من يهد الله فهوالمهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا »

(٢) سورة الأعراف ــ ١٧٢

Marfat.com

وقال أبو بكر السباك : لما خلق الله العقل قال له : من أنا ؟ فسكت ، فكحله بنور الوحدانية ، ففتح عينيه ، فقال : أنت الله لا إله إلا أنت فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله .

الباب الثانى والعشرون

﴿ اختلافهم فى المعرفة نفسها ﴾

ثم اختلفوا فى المعرفة نفسها : ماهى ؟ والفرق بينها و بين العلم .

فقال الجنيد : المعرفة وجود جهلك عند قيام علمه [1] .

قيل له : زدنا ، قال : هو العارف وهو المعروف .

معناه : أنك جاهل به من حيث أنت ، و إنما عرفتَه من حيث هو .

وهو كما قال سهل : المعرفة هى المعرفة بالجهل .

وقال سهل : العلم يثبت بالمعرفة ، والعقل يثبت بالعلم ، وأما المعرفة فإنها تثبت بذاتها .

معناه : أن الله تعالى إذا عرّف عبداً نفسه فعرف الله تعالى بتعرُّفه إليه ، أحدث له بعد ذلك علماً ، فأدرك العلم بالمعرفة وقام العقل فيه بالعلم الذى أحدثه فيه .

وقال غيره : تبيُّنُ الأشياء على الظاهر علم ، وتبيّنها على استكشاف بواطنها معرفة .

وقال غيره : أباحَ العلم للعامّة وخصّ أولياءه بالمعرفة .

وقال أبو بكر الورّاق : المعرفة معرفة الأشياء بصورها وسماتها ، والعلم علم الأشياء بحقائقها .

---

(١) من ذلك ماحكاه الله عن الملائكة فى كتابه الكريم : « سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا »

وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة بالله : هى علم الطلب لله من قبل الوجود له ، والعلم بالله هو بعد الوجود ، فالعلم بالله أخفى وأدقّ من المعرفة بالله .

وقال فارس : المعرفة هى المستوفية فى كنه المعروف .

وقال غيره : المعرفة هى حقر الأقدار إلا قدر الله ، وأن لا يشهد مع قدر الله قدراً .

وقيل لذى النون : بم عرفت ربّك ؟ قال : ماهممت بمعصية فذكرت جلال الله إلّا استحييت منه .

جعل معرفته بقرب الله منه دلالة المعرفة له .

وقيل لعليان : كيف حالك مع المولى ؟ قال : ماجفوته منذ عرفته .

قيل له : متى عرفته ؟

قال : منذ سمّونى مجنونا .

جعل دلالة معرفته له تعظيم قدره عنده .

قال سهل : سبحان من لم يدرك العبادُ من معرفته إلا عجزاً عن معرفته .

الباب الثالث والعشرون

﴿ قولهم فى الروح ﴾

قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، لقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (١) .

قال أبو عبد الله النباجى : الروح : جسم يلطف عن الحس ، ويكبر عن اللمس ، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

---

(١) سورة الإسراء ٨٥ .

Marfat.com

قال ابن عطاء : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ، يعنى الأرواح : ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [1] يعنى الأجساد .

وقال غيره : الروح : لطيف قام فى كثيف ، كالبصر : جوهر لطيف ، قام فى كثيف . .

وأجمع الجمهور على أن الروح : معنى يحيى به الجسد .

وقال بعضهم : هو روح : نسيم طيّب يكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون بها الحركات والسكنات والشهوات .

وسئل القحطبى عن الروح فقال : لم يدخل تحت ذل كن ، ومعناه عنده أنه ليس إلا الإحياء، والحىّ والإحياء صفة المحيى ، كالتخليق والخلق صفة الخالق ، واستدل من قال ذلك بظاهر قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

قالوا أمره : كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق ، كأنهم قالوا : إنما صار الحىّ حياً بقوله : كن حيًّا ، وليس الروح معنى فى الجسد حالًّا مخلوق كالجسد ، قال الشيخ وليس هذا بصحيح و إنما الصحيح أن الروح معنى فى الجسد مخلوق كالجسد .

الباب الرابع والعشرون

﴿ قولهم فى الملائكة والرسل ﴾

سكت الجمهور منهم عن تفضيل الرسل على الملائكة ، وتفضيل الملائكة على الرسل ، وقالوا : الفضل لمن فضله الله ، ليس ذلك بالجوهر ولا بالعمل . ولم يروا أحد الأمرين أوجب من الآخر ، بخبر ولا عقل .

وفضل بعضهم الرسل و بعضهم الملائكة .

---

(١) سورة الأعراف ١١ .

Marfat.com

وقال محمد بن الفضل : جملة الملائكة أفضل من جملة المؤمنين ، وفى المؤمنين من هو أفضل من الملائكة ، كأنه فضل الأنبياء [١] عليهم السلام وعلى الملائكة .

وأجمعوا أن بين الرسل تفاضلا ، لقوله الله تعالى . ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى . « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » [٣] . ولم يعينوا الفاضل والمفضول ، لقوله عليه السلام : « لاتخيروا بين الأنبياء » .

وأوجبوا فضل محمد صلى الله عليه وسلم بالخبر ، وهو قوله عليه والسلام : « أناسيّد ولد آدم ولا فخر ، آدم ومن دونه تحت لوائى » ، وسائر الأخبار التى جاءت ، وقول الله جل وعز : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [٤] ، فلما كانت أمّته خير الأمم ، وجب أن يكون نبيها خير الأنبياء ، وسائر ما فى القرآن من الدلائل على فضله .

وأجمعوا جميعاً أن الأنبياء أفضل البشر ، وليس فى البشر من يوازى الأنبياء فى الفضل ، لا صدّيق ، ولا ولى ، ولا غيرهم ، وإن جلّ قدره وعظم خطره .

قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه : « هذان سيّدا كهول أهل الجنّة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » ، يعنى أبا بكر وعمر ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهما خير الناس بعد النبيين .

قال : أبو يزيد البسطامى : آخر نهايات الصدّيقين أول أحوال الأنبياء ، وليس لنهاية الأنبياء غاية تدرك .

وقال سهل بن عبد الله : انتهت همم العارفين إلى الحجب ، فوقفت مطرقة ، فأذِن لها ، فسلمت فخلع عليها خِلَع التأييد وكتب لها براءة من الزيغ ؟ وهم الأنبياء

(١) : لعل هذا أقرب الآراء وأقواها .
(٢) سورة الإسراء : ٥٧
(٣) سورة البقره : ٢٥٤
(٤) سورة آل عمران : ١١٠ .

Marfat.com

جالت حول العرش ، فكُسيت الأنوار ورفع منها الأقذار ، واتّصلت بالجبّار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرّفة به له .

قال أبو يزيد : لو بدا للخلق من النبى ذرة لم يقم لها مادون العرش .

وقال : ما مثل معرفة الخلق وعلمهم بالنبى إلّا مثل نداوة تخرج من رأس الزقّ المربوط .

قال بعضهم : لم ينل أحد من الأنبياء الكمال فى التسليم والتفويض غير الحبيب والخليل صلى الله عليهما ، فلذلك أيس الكبراء عن الكمال وإن كانوا فى حال القربة مع تحقيق المشاهدة .

قال أبو العباس بن عطاء : أدنى منازل المرسلين أعلى مراتب النبيين ، وأدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصدّيقين ، وأدنى منازل الصدّيقين أعلى مراتب الشهداء ، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين ، وأدنى منازل الصالحين أعلى مراتب المؤمنين .

الباب الخامس والعشرون

﴿ قولهم فيما أضيف إلى الأنبياء من الزلل ﴾

قال الجنيد والنورى وغيرهما من الكبار : إن ما جرى على الأنبياء إنما جرى على ظواهرهم ، وأسرارُهُم مستوفاة بمشاهدات الحق .

واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾[1] .

وقالوا : ولا تصح الأعمال حتى يتقدّمها العقودُ والنياتُ ، وما لا عقد فيه ولا نية فليس بفعل ، وقد نفى الله تعالى الفعل عن آدم بقوله : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

---

(١) سورة طه : ١١٥

قالوا : ومعاتبات الحقّ لهم عليها إنما جاءت إعلاما للأغيار ليعلموا ، عند إتيانهم المعاصى ، مواضع الاستغفار .

وأثبتها بعضهم ، وقالوا : إنها كانت على جهة التأويل والخطإ فيه ، فعوتبوا عليها لعلوّ مرتبتهم وارتفاع منازلهم ، فكان ذلك زجراً لغيرهم وحفظا لمواضع الفضل عليهم ، وتأديباً لهم .

وقال بعضهم : إنها كانت على جهة السهو والغفلة وجعلوا سهوهم فى الأدنى بالأرفع .

وهكذا قالوا فى سهو النبى صلى الله عليه وسلم فى صلاته : إن الذى شغله عن صلاته كان أعظم من الصلاة ، لقوله : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، فأخبر أن فى الصلاة ما تقرّ به عينه ، ولم يقل جعلت قرة عينى الصلاة .

وكلّ من أثبتها زللا وخطايا ، فإنّهم جعلوها صغائر مقرونة بالتوبة ، كما قال الله تعالى مخبراً عن صفيه آدم وزوجته عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ (١) الآية ، وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (٢) ، وفى داود عليه السلام : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ (٣) .

الباب السادس والعشرون

﴿ قولهم فى كرامات الأولياء ﴾

أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء ، وإن كانت تدخل فى باب المعجزات ، كالمشى على الماء ، وكلام البهائم ، وطىّ الأرض ، وظهور الشىء فى غير موضعه ووقته، وقد جاءت الأخبار بها ، وصحت الروايات ، ونطق بها التنزيل : من قصّة الذى عنده

---

(١) سورة الأعراف : ٢٣
(٢) سورة طه : ١٢٢
(٣) سورة ص : ٢٤

Marfat.com

علم من الكتاب فى قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[1]، وقصّة مريم حين قال لها زكريا : ﴿ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾[2]، وقصّة الرّجلين اللذين كانا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم خرجا فأضاء لهما سوطاهما، وغير ذلك .

وجواز ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وغير عصره واحد ؛ وذلك أنه إذا كانت فى عصر النبى للنبى صلى الله عليه وسلم على معنى التصديق له ؛ كان فى غير عصره على معنى التصديق ، وقد كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين نادى سارية قال لسارية : ياسارية بن حصن ، الجبلَ الجبلَ ، وعمر بالمدينة على المنبر ، وسارية فى وجه العدو على مسيرة شهر .

والأخبار فى هذا كثيرة وافرة .

وإنما أنكرَ جوازَ ذلك من أنكر ، لأن فيه زعم إبطال النبوات ، لأن النبى لا يظهر عن غيره إلا بمعجزة يأتى بها تدلّ على صدقه ويعجز عنها غيره ، فإذا ظهرت على يدى غيره لم يكن بينه وبين من ليس بنبى فرق ولا دليل على صدقه .

قالوا : وفيه تعجيز الله عن إظهار نبى عن من ليس بنبىّ .

وقال أبو بكر الورّاق : النبى لم يكن نبيًّا للمعجزة ، وإنما كان نبيًّا بإرسال الله تعالى إياه ووحيه إليه ، فمن أرسله الله وأوحى إليه فهو نبىّ ، كانت معه معجزة أو لم تكن ، ووجب على من دعاه الرسول الإجابة له ، وإن لم يرُه معجزة ، ، وإنما كانت المعجزات لإثبات الحجة على من أنكر ، ووجوب كلمة العذاب على من عاند وكفر ، وإنما وجبت الإجابة للنبى بدعوته ، لأنه يدعوه إلى ماأوجب الله عليه : من

---

(١) سورة النمل ٤٠ .
(٢) سورة آل عمران ٣٧ .

Marfat.com

توحيده ، ونفى الشركاء عنه ، وإتيان ما ليس فى العقل استحالته ، بل وجوبه أو جوازه .

والأصل فى ذلك أنهما عينان : نبىّ ومتنبى ، فالنبى صادق ، والمتنبى كاذب ، وهما يشتبهان فى الصورة والتركيب .

وأجمعوا : أن الصادق يؤيده الله بالمعجزة ، والكاذب لا يجوز له مايكون للصادق ، لأن فى هذا تعجيز الله عن إظهار الصادق من الكاذب .

فأما إذا كان ولىّ صادق وليس بنبى ، فإنّه لا يدّعى النبوة ، ولا ماهو كذب وباطل ، وإنما يدعو إلى ماهو حق وصدق ، فإن أظهر الله عليه كرامة ، لم يقدح ذلك فى نبوة النبى ، ولا أوجب شبهة فيها ، لأن الصادق يقول مايقوله النبى، ويدعو إلى مايدعو إليه النبى ، فظهور الكرامة له تأييد للنبى ، وإظهار لدعوته ، وإلزام لحجّته ، وتصديقه فيما يدعوه ويدّعيه : من النبوة وإثبات توحيد الله عز وجل .

وجوّز بعضهم أن يُرِى اللهُ أعداءه فى خاصّة أنفسهم وفيما لا يوجب شبهة : مايخرج من العادات ، ويكون ذلك استدراجا لهم ، وسبباً لهلاكهم ، وذلك أنها تولِّد فى أنفسهم تعظما وكبرياء ، ويرون أنها كرامات لهم استأهلوها بأعمالهم ، واستوجبوها بأفعالهم ، فيتكلون على أعمالهم ، ويرون لهم الفضل على الخلق فيزرون(١) بعباده ، ويأمنون مكره ، ويستطيلون على عباده .

وأما الأولياء فإنهم إذا ظهر لهم من كرامات الله شىء ازدادوا لله تذللا وخضوعا وخشية واستكانة ، وإزراء بنفوسهم ، وإيجابا لحقّ الله عليهم ، فيكون ذلك زيادةً لهم فى أمورهم ، وقوة على مجاهداتهم ، وشكراً لله تعالى على ماأعطاهم .

فالذى للأنبياء معجزاتٌ ، وللأولياء كراماتٌ ، وللأعداء مخادعاتٌ .

---

(١) فيتهاونون بهم ويحتقرونهم .

Marfat.com

وقال بعضهم . إن كرامات الأولياء تجرى عليهم من حيث لا يعلمون ، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون ، و بإثباتها ناطقون ، لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة ، والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها ، لأنهم معصومون.

قالوا : وكرامة الولى بإجابة دعوة ، وتمام حال ، وقوة على فعل ، وكفاية مؤنة ، يقوم لهم الحقّ بها ، وهى مما يخرج عن العادات . ومعجزات الأنبياء : إخراج الشىء من العدم إلى الوجود ، وتقليب الأعيان .

وجوّز بعض المتكلمين ، وقوم من الصوفية ، إظهارها على الكذابين من حيث لا يعلمون ، وقت مايدعونها فيما لا يوجب شبهة ، كما روى فى قصة فرعون من جرى النيل معه ، وكما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الدجال : أنه يقتل رجلا ثم يحييه فيما يخيّل إليه .

قالوا : إنما جاز ذلك ، لأنهما إدّعيا ما لا يوجب شبهة ، لأن أعيانهما تشهد على كذبهما فيما ادّعياه من الربوبية .

واختلفوا فى الولى : هل يجوز أن يعرف أنه ولى أم لا ، فقال بعضهم : لا يجوز ذلك ، لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة ، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن ، وفى وجوب الأمن زوال العبودية ، لأن العبد بين الخوف والرجاء ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ (١)

وقال الأجلة منهم والكبار : يجوز أن يعرف الولى ولايته ، لأنها كرامة من الله تعالى للعبد ، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضى زيادة الشكر .

والولاية ولايتان : ولاية تخرج من العداوة وهى لعامّة المؤمنين ، فهذه لا توجب معرفتها والتحقّق بها للأعيان ، لكن من جهة العموم ، فيقال : المؤمن ولى الله : ولاية اختصاص واصطفاء واصطناع وهذه توجب معرفتها والتحقق بها ،

(١) سورة الأنبياء ٩٠ .

ويكون صاحبها محفوظا عن النظر إلى نفسه ، فلا يدخله عجب ويكون مسلوباً من الخلق ، بمعنى النظر إليهم بحظّ فلا يفتنونه ، ويكون محفوظا عن آفات البشرية ، وإن كان طبع البشرية قائما معه باقياً فيه ، فلا يستحلى حظا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه فى دينه ، واستحلاء الطبع قائم فيه ، وهذه هى خصوص الولاية من الله للعبد .

ومن كان بهذه الصفة لم يكن للعدو إليه طريق بمعنى الإغواء . لقوله جل وعز : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(١) ، وهو مع هذا ليس بمعصوم من صغيرة ولا كبيرة ، فإن وقع فى أحديهما قارنته التوبة الخالصة .

والنبى معصوم لا يجرى عليه كبيرة بإجماع ، ولا صغيرة عند بعضهم .

وزوال خوف العاقبة ليس بممتنع ، بل هو جائز ، فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنّهم من أهل الجنّة ، وشهد للعشرة بالجنّة ، والراوى له سعيد ابن زيد وهو أحد العشرة المبشرة بالجنة ، وشهادة النبى صلى الله عليه وسلم توجب سكونا إليها وطمأنينة بها وتصديقاً لهـا ، وهذا يوجب الأمن من التغيير وزوال خوف التبديل لا محالة .

والروايات التى جاءت فى خوف المبشّرين من قول أبى بكر رضى الله عنـه : ياليتنى كنت تمرة ينقرها الطير .

وقول عمر رضى الله عنه : ياليتنى كنت هـذه النبتة ، ليتنى لم أكُ شيئاً .

وقول أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش ، فيذبحنى أهلى ويأكلون لحمى ، ويحسون مرقى .

وقول عائشة رضى الله عنها . ياليتنى كنت ورقة من هـذه الشجرة ، وهى من شهد لها عمار بن ياسر على منبر الكوفة فقال : أشهد أنها زوجة النبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الحجر ٤٢ .

إنما كان ذلك منهم خوفا من جريان المخالفات عليهم ، إجلالا لله تعالى ، وتعظيما لقدره ، وهيبة له ، وحياء منه ، بأنهم أجلوا الحق أن يخالفوه وإن لم يعاقبهم .

كما قال عمر رضى الله عنه : نعم المرء صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه .

يعنى أن صهيباً ليس يترك المعصية لله خوف عقوبته ، ولكنه يتركها إجلالا له وتعظيما لقدره وحياء منه .

فخوف المبشرين لم يكن خوفا من التغيير والتبديل ، لأن خوف التغيير والتبديل مع شهادة النبى صلى الله عليه وسلم ، يوجب شكاً فى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا كفر ، ولم يكن ذلك خوف عقوبة فى النار دون الخلود فيها ، لعلمهم بأنهم لا يعاقبون بالنار على مايكون منهم ، لأنها إما أن تكون صغائر فتكون مغفورة باجتناب الكبائر ، أو بما يصيبهم من البلوى فى الدنيا .

قال عبد الله بن عمر فيما روى عن أبى بكر الصديق قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلت هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أقرئك آية أنزلت علىّ ؟ » .

قلت : بلى يارسول الله .

قال : « فأقرأنيها » .

فلا أعلم ماأصابنى ، إلا أنى وجدت انقصاما فى ظهرى ، فتمطّيت لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماشأنك ياأبابكر ؟ » .

فقلت : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، وأينا لم يعمل سوءاً ، وإنا لمجزون بما عملنا ! !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أنت ياأبابكر والمؤمنون فتجزون

---

(١) سورة النساء ١٢٣

Marfat.com

بذلك فى الدنيا ، حتى تلقَوا الله وليس لـكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة » .

أوتـكون كبائر فيقارنها التوبة لامحالة ، فتصح بشارة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بالجنّة .

على أن هذا الحديث قد بيّن أنه يأتى يوم القيامة ولاذنب له .

قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : « وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لـكم » .

ولوكان كما قال بعض الناس : إنّهم بُشّروا بالجنّة ولم يبشروا بأنّهم لايعاقبون ، فـكان خوفهم من النـار وإن علموا أنّهم لايخلدون فيها ، لـكان المبشرون وغيرهم من المؤمنين فى ذلك سواء لأنّهم لامحالة مخرجون منها .

ولوجاز دخول أبى بكر وعمر النار ، مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « هما سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين » ، جاز دخول الحسن والحسين ، مع قوله: « هما سيّدا شباب أهل الجنة » .

فإن كانت سادة أهل الجنة يجوز أن يدخلهم الله النار ويعذّبهم بها ، لم يجز أن يدخل أحد الجنة إلابعد أن يعذّب بالنار .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق السماء ، وإن أبابكر وعمر منهم وأنعما » .

فإن كان هذان يدخلان النار ويخزيان فيها لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ (١) ، فـكيف بغيرهما ؟

وقال ابن عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وأبو بكر وعمر ،

---

(١) سورة آل عمران ١٩٢

Marfat.com

حدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وهو آخذ بأيديهما وقال : هكذا « نبعث
يوم القيامة » .

فإن جاز دخولهما النار جاز دخول الثالث !

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يدخل من أمّتى الجنة سبعون ألفاً
بغير حساب » .

فقال عكاشة بن محصن الأسدى : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال
النبى صلى الله عليه وسلم « أنت منهم » .

وأبو بكر وعمر أفضل من عكاشة لامحاله ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم :
« هما سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين » .

فكيف يجوز أن يدخل عكاشة الجنة بغير حساب ، وهو دونهما فى الفضل وهما
فى النار ، فهذا غلط كبير .

فقد صحّ بهذه الأخبار أنهما لايجوز أن يكونا معذّبين بالنار مع شهادة الرسول
صلى الله عليه وسلم لهما بالجنة ، فقد تبين أمنهما ؛ فمهما قيل فيهما وفى غيرهما من المبشرين
كان ذلك قولا فيمن سواهما من الأولياء من جواز الأمن .

وأما طريق معرفة سائر الأولياء دون المبشرين إذ كان المبشرون إنما علموا ذلك
بإخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، وغيرهم لم يكن فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فيخبرهم ؛ فإنهم إنما يعرفون بما يحدث الله فيهم من اللطائف التى يخصّ بها أولياءه ،
وبما يورد على أسرارهم من الأحوال التى هى أعلام ولايته : من اختصاصه لهم به ،
وجذبه لهم ممـا سواه إليه ، وزوال العوارض عن أسرارهم ، وفناء الحوادث لهم ،
والصوارف عنه إلى غيره ، ووقوع المشاهدات والمكاشفات التى لايجوز أن يفعلها
الله تعالى إلا بأهل خاصته ، ومن اصطفاه لنفسه فى أزله ، ممـا لا يفعل مثلها فى
أسرار أعدائه .

Marfat.com

فقد ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه لم يفضلكم بكثرة الصوم والصلاة ، ولكن فضلكم بشىء وقر فى صدره — أوفى قلبه — فهذا معنى الحديث .

ويؤمنهم أن يجدوا فى أسرارهم كرامات ومواهب ، وأنها على الحقيقة ، وليست بمخادعات ، كالذى كان للذى آتاه آياته فانسلخ منها ، ومعرفتهم أن أعلام الحقيقة لايجوز أن يكون كأعلام الخداع والمكر ، لأن أعلام المخادعات تكون فى الظاهر : من ظهور ماخرج من العادة مع ركون المخدوع بها إليها واغترارهم بها ، فيظنوا أنها علامات الولاية والقرب ، وهو فى الحقيقة خداع وطرد ، ولوجاز أن يكون مايفعله بأوليائه من الاختصاص كما يفعله بأعدائه من الاستدراج ، لجاز أن يفعل بأنبيائه مايفعل بأعدائه . فيبعد أنبياءه ويلعنهم كما فعل بالذى آتاه آياته . وهذا لايجوز أن يقال فى الله عز وجل ، ولوجاز أن يكون للأعداء أعلام الولاية ، وأمارات الاختصاص ، ويكون دلائل الولاية لا تدلّ عليها ، لم يقم للحق دليل بتة ، وليست أعلام الولاية من جهة حلية الظواهر ، وظهور ماخرج من العادة لهم فقط ، لكن أعلامها : إنما تكون فى السرائر بما يحدث الله تعالى فيها مما يعلمه الله تعالى ومن يجده فى سرّه .

الباب السابع والعشرون

﴿ قولهم فى الإيمان ﴾

الإيمان عند الجمهور منهم : قول ، وعمل ونية ، ومعنى النية التصديق .

وروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، من طريق جعفر بن محمد عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإيمان إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالأركان » .

Marfat.com

قالوا : أصل الإيمان : إقرار اللسان بتصديق القلب ، وفروعه العمل بالفرائض .

وقالوا : الإيمان فى الظاهر والباطن ، والباطن شىء واحد ، وهو القلب ، والظاهر أشياء مختلفة .

وأجمعوا أن وجوب الإيمان ظاهراً كوجوبه باطناً وهو الإقرار ، غير أنه قسط جزء من أجزاء الظاهر دون جميعه ، ولما كان قسط الباطن من الإيمان قسط جميعه ، وجب أن يكون قسط الظاهر من الإيمان قسط جميعه ، وقسط جمبعه هو العمل بالفرائض ، لأنه يعمّ جميع الظاهر ، كما عمّ التصديق جميع الباطن .

وقالوا : الإيمان يزيد وينقص .

وقال الجنيد ، وسهل ، وغيرهما من المتقدّمين منهم : إن التصديق يزيد ولا ينقص ، ونقصانه يخرج من الإيمان ، لأنه تصديق بأخبار الله تعالى وبمواعيده ، وأدنى شكّ فيه كفر ؛ وزيادته من جهة القوة واليقين وإقرار اللسان لا يزيد ولا ينقص ، وعمل الأركان يزيد وينقص .

وقال قائل منهم : المؤمن اسم الله تعالى ، قال الله جل جلاله : ﴿ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾(١) ، وهو يؤمّن المؤمن بإيمانه من عذابه ، والمؤمن إذا أقرّ وصدّق وأتى بالأعمال المفترضات ، وانتهى عن المنهيات أمن من عذاب الله ، ومن لم يأت بشىء من ذلك ، فهو مخلد فى النار ؛ والذى أقرّ وصدّق وقصّر فى الأعمال ، فجائز أن يكون معذّبا غير مخلد ، فهو آمن من الخلود غير آمن من العذاب ، فكان أمنه ناقصاً غير كامل ، وأمن من أتى بها كلّها أمناً تامّا غير ناقص ، فوجب أن يكون نقصان أمنه لنقصان إيمانه إذ كان تمام أمنه لتمام إيمانه .

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم إيمان من قصّر فى واجب بالضعف فقال :

---

(١) سورة الحشر : ٢٣

Marfat.com

« وذلك أضعف الإيمان » وهو الذى يرى المنكر فينكره بباطنه دون ظاهره . فأخبر أن إيمان الباطن دون الظاهر : إيمان ضعيف .

ووصفه بالكمال فقال : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ، والأخلاق تكون فى الظاهر والباطن ، فما عمَّ الجميع وُصف بالكمال ، وما لم يعمّ الجميع وُصف بالضعف .

وقال بعضهم : زيادة الإيمان ونقصانه من جهة الصفة لا من جهة العين ، فزيادة الإيمان من جهة الجودة والحسن والقوة ، ونقصانه من نقصانها لا من جهة العين .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع » . وهن مريم وفاطمة وخديجة وعائشة رضى الله عنهن .

ولم يكن نقصان سائر النساء من جهة أعيانهن ولكن من جهة الصفة .

ووصفهن أيضاً بنقصان العقل والدين ، وفسر نقصان دينهن بتركهن الصلاة والصيام فى الحيض .

والدين الإسلام ، وهو والإيمان واحد عند من لا يرى العمل من الإيمان .

وسئل بعض الكبراء عن الإيمان فقال : الإيمان من الله لا يزيد ولا ينقص ، ومن الأنبياء يزيد ، ولا ينقص ، ومن غيرهم يزيد وينقص .

فمعنى قوله : من الله لا يزيد ولا ينقص : أن الإيمان صفة لله تعالى . وهو موصوف به . قال الله تعالى : ﴿ السَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ ، وصفات الله لا توصف بالزيادة والنقصان .

ويجوز أن يكون الإيمان من الله جل وعز هو الذى قسمه للعبد منه فى سابق علمه لا يزيد وقت ظهوره ولا ينقص عما علمه منه وقسمه له .

والأنبياء فى مقام المزيد من الله تعالى من جهة القوة واليقين ومشاهدات أحوال الغيوب . كما قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١)

وسائر المؤمنين يزيد إيمانهم فى بواطنهم بالقوة واليقين ، وينقص من فروعه بالتقصير فى الفرائض وارتكاب المناهى .

والأنبياء معصومون عن ارتكاب المناهى ومحفوظون فى الفرائض عن التقصير ، فلا يوصفون بالنقصان فى شىء من أوصافهم فى حقائق الإيمان .

الباب الثامن والعشرون

﴿ قولهم فى حقائق الإيمان ﴾

قال بعض الشيوخ : حقائق الإيمان أربعة : توحيد بلا حدّ ، وذكر بلا بت ، وحال بلا نعت ، ووجد بلا وقت .

معنى حال بلا نعت : أن يكون وصفه حاله حتى لا يصف حالا من الأحوال الرفيعة إلا وهو بها موصوف ، ووجد بلا وقت : أن يكون مشاهداً للحقّ فى كلّ وقت .

وقال بعضهم : من صحّ إيمانه لم ينظر إلى الكون ومافيه ، لأن خساسة الهمّة من قلّة المعرفة بالله تعالى .

وقال بعضهم : صدق الإيمان : التعظيم لله وثمرته الحياء من الله .

وقيل : المؤمن مشروح الصدر بنور الإسلام ، منيب القلب إلى ربّه ، شهيد الفؤاد لربّه ، سليم اللبّ ، متعوّذ بربّه ، محترق بقربه ، صارخ من بعده .

وقال بعضهم : الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته .

وقال أبو القاسم البغدادى : الإيمان : هو الذى يجمعك إلى الله ، ويجمعك بالله

---

(١) سورة الأنعام ٧٥ .

Marfat.com

والحقّ واحـد ، والمؤمن متوحّد ، ومن وافق الأشياء فرقته الأهواء ، ومن تفرّق عن الله بهواه ، وتبع شهوته وما يهواه ، فاته الحقّ ، ألا ترى أنه أمرهم بتكرير العقود عنـد كلّ خطرة ونظرة . فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) .

وقال النبى صلى الله عليـه وسلم : « الشرك أخفى فى أمّتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد بطنه ، تعس عبد فرجه ، تعس عبد الخميصة » .

وسألت بعض مشائخنا عن الإيمان فقال : هو أن يكون الـكلّ منك مستجيباً فى الدعوة مع حذف خواطر الانصراف عن الله بسرّك ، فتكون شاهداً لما له ، غائباً عما ليس له .

وسألته مرّة أخرى عن الإيمان . فقال : الإيمان مالا يجوز إتيان ضدّه ولا ترك تكليفه .

وفى قوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ياأهل صفوتى ومعرفتى ياأهل قربى ومشاهدتى .

وجعل بعضهم الإيمان والإسلام واحداً .

وفرق بعضهم بينهما فقال مَنْ فرّق بينهما : الإسلامُ عامّ ، والإيمان خاصّ .

وقال بعضهم : الإسلام ظاهر ، والإيمان باطن .

وقال بعضهم : الإيمان تحقيق واعتقاد ، والإسلام خضوع وانقياد .

وقال بعضهم : التوحيد سرّ ، وهو تنزيه الحقّ عن دركه ، والمعرفة برّ ، وهو

---

(١) سورة النساء ١٣٦ .

أن تعرفه بصفاته ، والإيمان عقد القلب بحفظ السرّ ومعرفة البرّ ، والإسلام مشاهدة قيام الحقّ بكلّ ماأنت به مطالب .

الباب التاسع والعشرون

﴿ قولهم فى المذاهب الشرعية ﴾

إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء ؛ وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن . ويرون اختلاف الفقهاء صوابا ، ولايعترض الواحد منهم على الآخر ؛ وكلّ مجتهد عندهم مصيب ، وكلّ من اعتقد مذهباً فى الشرع ، وصحّ ذلك عنده بما يصحّ مثله مما يدلّ عليه الكتاب والسنّة ، وكان من أهل الاستنباط فهو مصيب باعتقاده ذلك ، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له .

وأجمعوا على تعجيل الصلوات ، وهو الأفضل عندهم مع التيقّن بالوقت .

ويرون تعجيل أداء جميع المفترضات عند وجوبها ، لا يرون التقصير والتأخير والتفريط فيها إلا لعذر .

ويرون تقصير الصلاة فى السفر ومن أدمن السفر منهم ولم يكن له مقرّ أتمّ الصلاة .

ورأوا الفطر فى السفر جائزاً ويصومون .

واستطاعة الحجّ عندهم الإمكان من أىّ وجه كان ، ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط .

قال ابن عطاء : الاستطاعة اثنان ؛ حال ومال ، فمن لم يكن له حال يقلّه ، ولا مال يبلغه لا يجب عليه .

الباب الثلاثون

﴿ قولهم فى المكاسب ﴾

أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث ، وغير ذلك ، مما أباحته الشريعة على تيقظ وتثبت وتحرز من الشبهات ، وأنها تُعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار . وهى عندهم واجبة لمن رُبط به غيره ممن يلزمه فرضه .

وسبيل المكاسب عند الجنيد على ماسبق من الشرط : سبيل الأعمال المقرِّبة إلى الله عز وجل .

ويشتغل العبد بها على حسب مايشتغل فى إتيان ماندب إليه من النوافل ، لا على أن بها تجلب الأرزاق وتجر المنافع .

وهى عند غيره مباح للفرد ليس بواجب عليه من غير أن يقدح فى توكله أو يجرح دينه .

والاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق . والإعراض عنه عند صحة التوكل والثقة بالله أوجب .

وقال سهل : لا يصح الكسب لأهل التوكل إلا لاتباع السنة ، ولا لغيرهم إلا للتعاون .

. هذا ما تحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم ، من أقاويلهم فى كتبهم ، ممن ذكرنا أساميهم ابتداء ، وما سمعناه من الثقات ، ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم ، والذى فهمناه من رموزهم وإشاراتهم فى ضمن كلامهم ، قال وليس كل ذلك مسطوراً لهم على حسب ماحكيناه ، وأكثر ماذكرنا من العلل والاحتجاج ، فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم .

Marfat.com

ومن تدبر كلامهم وتفحص كتبهم ، علم صحة ماحكيناه ، ولولا أنَّا كرهنا الإطالة والإكثار لكنا نذكر مكان ماحكيناه من كلامهم من كتبهم نصاً ودلالة ، إذ ليس كل ذلك مرسوما فى الكتب على التصريح .

ونذكر الآن بعض ماتخصصوا به من أقاويلهم ، وما استعملوه من ألفاظهم مما تفرّدوا به ، والعلوم التى عنوا بها وما يدور كلامهم عليه ، ونشرح بعض مايمكن شرحه ، وبالله نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

الباب الحادى والثلاثون

﴿ علوم الصوفية علوم الأحوال ﴾

أقول وبالله التوفيق : اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال . والأحوال : مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال .

وأول تصحيح الأعمال : معرفة علومها ، وهى علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه : من الصلاة ، والصوم ، وسائر الفرائض ، إلى علم المعاملات : من النكاح ، والطلاق ، والمبايعات ، وسائر ماأوجب الله تعالى ، وندب إليه ، وما لاغناء به عنه من أمور المعاش .

وهذه علوم التعلم والاكتساب :

فأول مايلزم العبد : الاجتهاد فى طلب هذا العلم وإحكامه ، على قدر ماأمكنه ووسعه طبعه ، وقوى عليه فهمه ، بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة ، على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه ، القدر الذى يتيقن بصحة ماعليه أهل السنة والجماعة ، فإن وفق لما فوقه من نفى الشبه التى تعترضه : من خاطر أو ناظر ، فذاك ، وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاما بالجملة التى عرفها ، وتجافى عن المناظر الذى يحاجّه فيه ويجادله عليه وباعده ، فهو فى سعة إن شاء الله عز وجل ، واشتغل باستعمال علمه وعمل بما علم .

Marfat.com

فأول مايلزمه : علم آفات النفس ، ومعرفتها ، ورياضتها ، وتهذيب أخلاقها ، ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها ؛ وهذا العلم علم الحكمة .

فإذا استقامت النفس على الواجب ، وصلحت طباعُها وتأدبت بآداب الله عز وجل : من زمّ جوارحها ، وحفظ أطرافها ، وجمع حواسها ، سهل عليه إصلاح أخلاقها ، وتطهير الظاهر منها ، والفراغ مما لهـا ، وعزوفها عن الدنيـا ، وإعراضها عنها .

فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر ، وتطهير السرائر ، وهـذا هو علم المعرفة .

ثم وراء هـذا علوم الخواطر ، وعلوم المشاهدات والمكاشفات ، وهى التى تختص بعلم الإشارة ، وهو العلم الذى تفرّدت به الصوفية ، بعد جمعها سائر العلوم التى وصفناها .

وإنما قيل : علم الإشارة ، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار ، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات .

روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرّة بالله » .

وعن عبد الواحد بن زيد قال : سألت الحسن عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : « سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال : هو سرّ من سرّى ، أجعله فى قلب عبدى ، لا يقف عليه أحد من خلقى » .

قال أبو الحسن بن أبى ذر فى كتابه منهاج الدين أنشدونا للشبلى :

Marfat.com

عِلْمُ ٱلتَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَا نَفَادَ لَهُ   عِلْمٌ سَنِيٌّ سَمَاوِيٌّ رَبُوبِي
فيه ٱلفوَائِدُ لِلأَرْبَابِ يَعْرِفُهَا   أَهْلُ ٱلْجَزَالَةِ وَٱلصَّنْعِ ٱلْخُصُوصِي

ثم لكل مقام بدء ونهاية ، و بينهما أحوال متفاوتة ، ولكل مقام علم ، و إلى كل حال إشارة ، ومع كل مقام إثبات ونفى ، وليس كل ما نفى فى مقام كان منفيا فيما قبله ، ولا كل ما أثبت فيه كان مثبتا فيما دونه .

وهو كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

فنفى إيمان الأمانة لا إيمان العقد ، والمخاطبون أدركوا ذلك ، إذ كانوا قد حلوا مقام الأمانة أو جاوزوه إلى ما فوقه ، وكان عليه السلام مشرفا على أحوالهم فصرح لهم .

فأما من لم يشرف على أحوال السامعين ، وعبر عن مقام ، فنفى فيه وأثبت ، جاز أن يكون فى السامعين من لم يحلّ ذلك المقام ، وكان الذى نفاه القائل مثبتا فى مقام السامع ، فيسبق إلى وهم السامع أنه نفى ما أثبته العلم ، فخطّأ قائله أو بدّعه ، وربما كفّره .

فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ فى علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها ، فأدركه صاحبه وخفى على السامع الذى لم يحلّ مقامه ، فأما أن يحسن ظنّه بالقائل فيقبله و يرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه ؛ أو يسوء ظنّه به فيهوّس قائله و ينسبه إلى الهذيان ، وهذا أسلم له من ردّ حقّ و إنكاره .

قال بعض المتكلمين لأبى العباس بن عطاء : مابالكم أيها المتصوّفة قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين ، وخرجتم عن اللسان المعتاد ، هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعَوار المذهب ؟

Marfat.com

فقال أبو العباس : مافعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه ، لعزته علينا ، كيلا يشربها غير طائفتنا ، ثم اندفع يقول :

أَحْسَنُ مَا أُظْهِرُهُ وَنظهرُهُ بَادِئُ حَقٍّ لِلقلوبِ نشْعره
يُخبرنِي عَنِى وَعَنْــه أَخْــبره أكسوهُ مِنَ رَوْنقِهِ ما يَستُرُه
عَنْ جاهِلٍ لَا يَسْتطيعُ يَنْشرُه يُفسِدُ مَعْناهُ إِذَا مَا يَعْبُرُه
فَلَا يُطِيقُ اللَّفظَ بَلْ لَا يَعْشرُه ثُمَّ يُوَافِى غَيْرَهُ فَيُخْبِرُه
فيَظْهرُ الْجَهْلُ وَتبدُو زُمَرُه وَيَدْرسُ الْعِلْمُ ويَعفُو أثرُه

وأنشدونا أيضا له :

إذا أَهْلُ الْعِبَارَةِ ساءلونا أَجَبْنَاهُمْ بِأعْـلَامِ الْإِشارَه
نُشيرُ بهـا فَنجعَلُها غُمُوضاً تَقَصُرُ عَنْهُ تَرْجَمَةُ الْعِبارَه
وَنَشهَدُها وَتُشْهِدُنا سُرُوراً لَهُ فى كلِّ جارِحَةٍ إثارَه
تَرى الْأَقْوَال فى الْأَحْوالِ أَسْرى كَأَسرِ الْعارِفِينَ ذَوِى الْخَسارَه

الباب الثانى والثلاثون

﴿ فى التصوف ماهو ﴾

سمعت أباالحسن محمد بن أحمد الفارسى يقول : أركان التصوف عشرة .

أولها : تجريد التوحيد ، ثم فهم السماع ، وحسن العشرة ، وإيثار الإيثار ، وترك الاختيار ، وسرعة الوجد ، والكشف عن الخواطر ، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب ، وتحريم الادخار .

معنى تجريد التوحيد : أن لايشوبه خاطر تشبيه أوتعطيل .

وفهم السماع : أن يسمع بحاله لابالعلم فقط .

وإيثار الإيثار أن يؤثر على نفسه غيره بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره .

وسرعة الوجد : أن لا يكون فارغ السرّ مما يثير الوجد ولا ممتلئ السرّ مما يمنع من سماع زواجر الحقّ .

والكشف عن الخواطر : أن يبحث عن كل ما يخطر على سرّه، فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له .

وكثرة الأسفار : لشهود الاعتبار فى الآفاق والأقطار .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (٢) ، قيل فى قوله عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : بضياء المعرفة لا بظلمة النكرة ، ولقطع الأسباب ، ورياضة النفوس . وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل . وتحريم الادخار فى حالة لا فى واجب العلم .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الذى مات من أهل الصفة وترك ديناراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيّة » .

الباب الثالث والثلاثون

﴿ فى الكشف عن الخواطر ﴾

قال بعض الشيوخ : الخاطر على أربعة أوجه ؛ خاطر من الله عز وجل ، وخاطر من الملك ، وخاطر من النفس ، وخاطر من العدو .

فالذى من الله تنبيه . والذى من الملك حث على الطاعة . والذى من النفس مطالبة الشهوة ، والذى من العدو تزيين المعصية .

---

(١) سورة الروم ٩

(٢) سورة العنكبوت ٢٠

Marfat.com

فبنور التوحيد يقبل من الله ، و بنور المعرفة يقبل من الملك ، و بنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو .

الباب الرابع والثلاثون

﴿ فى التصوّف والاسترسال ﴾

قال الجنيد : التصوف حفظ الأوقات ، قال : وهو أن لا يطالع العبد غير حده . ولا يوافق غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

وقال ابن عطاء : التصوّف الاسترسال مع الحق .

قال أبو يعقوب السوسى : الصوفى هو الذى لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب .

قيل للجنيد : ما التصوّف ؟

قال : لحوق السرّ بالحق ، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس عن الأسباب ، لقوة الروح والقيام مع الحق .

وسئل الشبلى : لم سميت الصوفية صوفية .

قال : لأنها ارتسمت بوجود الرسم و إثبات الوصف ، ولو ارتسمت بمحو الرسم لم يكن إلا اسم الرسم ومثبت الوصف ، فأحالهم على رسومهم . وأنكر أن يكون للمتحقق رسم أو وصف .

قال أبو يزيد : الصوفية أطفال فى حجر الحق .

قال أبو عبدالله النباجى : مثل التصوّف مثل علة البرسام فى أولها هذيان ، فإذا تمكنت أخرست . يعنى أنه يعبر عن مقامه و ينطق بعلم حاله ، فإذا كوشف تحير وسكت .

سمعت فارسا يقول : متى تظاهر فى خواطر المجوس ، على دواعى ملمات النفوس ، وجد السبيل إلى ترجيح الأولى فيقع النشر . وأما الوصلة فإنها تحجب مو

Marfat.com

لإملاء ، فيكون المرجع إلى الخرس عن كلّ نفس .

سئل النورى عن التصوّف فقال : نشر مقام واتصال بقوام .

قيل له : فما أخلاقهم ؟

قال : إدخال السرور على غيرهم ، والإعراض عن أذاهم .

قال الله تعالى : ﴿ خذِ ٱلْعَفْوَ وأْمُرْ بالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجاهِلِينَ ﴾ (١) ، معنى نشر مقام ، هو أن يعبر عن حاله إذا عبر ، لا عن حال غيره ، بلسان العلم . ومعنى اتصال بقوام ، هو أن يحمله حاله فى حاله عن حال غيره ، وأنشدونا للنورى :

أَزْعَجْتَنِى عَنْ نُعوتِ ٱلْحَالِ بِٱلْحَالِ ... وَكَيْفَ يُنْعَتُ مَنْ لَا قالَ بِٱلْقالِ

مَا كُلُّ مَنْ يدَّعِى حَالًا تصدِّقهُ ... حَتَّى يترجمَ عَنه صَاحِب ٱلْحَالِ

ونريد أن نخبر الآن ببعض المقامات على لسان القوم من غير بسط كراهة الإطالة ونحكى من مقالات المشايخ فيها ماقرب منها إلى الأفهام دون الرموز الخفية والإشارات الدقيقة ، ونبدأ بالتوبة .

الباب الخامس والثلاثون

﴿ قولهم فى التوبة ﴾

سئل الجنيد بن محمد عن التوبة ماهى ؟ فقال . هو نسيان ذنبك . وسئل سهل عن التوبة . فقال . هو أن لا تنسى ذنبك .

فمعنى قول الجنيد . أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجا لا يبقى له فى سرّك أثر ، حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قط .

---

(١) سورة الأعراف ١٩٨

Marfat.com

وقال رويم . معنى التوبة أن تتوب من التوبة ، معناه . ماقالت رابعة : أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله .

سئل الحسين المغازلى عن التوبة . فقال : تسألنى عن توبة الإنابة ، أوتوبة الاستجابة ؟

فقال السائل : ماتوبة الإنابة ؟

قال : أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك .

قال فماتوبة الاستجابة ؟

قال. أن تستحى من الله لقربه منك .

قال ذو النون . توبة العام : من الذنب ، وتوبة الخاص : من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ مانالہ غيرهم .

وقال النورى : التوبة أن تتوب من ذكر كلّ شئ سوى الله جل وعز .

قال إبراهيم الدقاق : التوبة أن تكون لله وجها بلاقفا كما كنت له قفا بلاوجه والله الموفق .

الباب السادس والثلاثون

﴿ قولهم فى الزهد ﴾

قال الجنيد : الزهد خلو الأيدى من الأملاك ، والقلوب من التتبع .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ــ وسئل عن الزهد ما كان ــ فقال : هو أن لا تبالى مَنْ أكل الدنيا من مؤمن أو كافر .

قال يحيى : الزهد ترك البدّ .

قال مسروق : الزاهد : الذى لا يملكه مع الله سبب .

Marfat.com

سئل الشبلي عن الزهد فقال : ويلكم ، أى مقدار لأقلّ من جناح بعوضة حتى يزهد فيها ؟

قال أبو بكر الواسطى : كم تصول بترك كنيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة !

وسئل الشبلي عن الزهد ، فقال : لا زهد فى الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيما ليس له ، فليس ذلك بزهد ؛أو يزهد فيما هو له ، فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده، فليس إلا ظلف النفس (١) وبذل ومواساة . كأنه جعل الزهد ترك الشيء فيما ليس له ، وماليس له لا يصح له تركه لأنه متروك ، وماهو له لا يمكنه تركه .

الباب السابع والثلاثون

﴿ قولهم فى الصبر ﴾

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله تعالى ، قال : وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

وقال غيره : الصبر أن تصبر فى الصبر : معناه أن لا تطالع فيه الفرج .

قال بعضهم :

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْـ رُ فَنَادَى الصَّبُورُ يَاصَبْرُ صَبْراً

قال سهل : فى قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (٢) : أى استعينوا بالله واصبروا على أمر الله ، واصبروا على أدب الله سبحانه .

قال سهل : الصبر مقدّس تقدس به الأشياء .

---

(١) إعراضها عن الشيء .
(٢) سورة البقرة ٤٥ .

قال أبو عمرو الدمشقى فى قوله تعالى : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾[١] أى مسنى الضر ، فصَبِّرْنِى ، لأنك أرْحَمُ الرَّاحِمينَ .

وقال غيره : مسنى الضر الذى تخص به أنبياءك وأولياءك بلا استحقاق منى ، لكن لأنك أرْحَمُ الرَّحِمِينَ .

وقال بعضهم : إنما جزع من أجله لا من أجل نفسه ؟ وذلك أن الألم استولى على بدنه ، فخاف زوال عقله . أنشدونا لأبى القاسم سمنون :

تَجَرَّعْتُ مِنْ حاليْهِ نُعْمَى وَأبْؤساً ... زَمَانٌ إذا أَمْضَى عَزَاليْهِ احْتَسى
فَــكَمْ غَمْرَةٍ قَدْ جَرَّعَتْنِى كُؤوسَها ... فَجَرَّعْتُها مِنْ بَحْرِ صَبْرى أكْؤساَ
تَدَرَّعْتُ صَبْرى وَٱلْتَحفْتُ صُرُوفهُ ... وَقُلْتُ لنفسى ٱلصَّبرُ أوْ فاهلكى أسَا
خُطُوبٌ لَو أنَّ ٱلشُّمَّ زَاحَمْنَ خَطْبَهَا ... لساخَتْ وَلَمْ تُدرِكْ لَهَا ٱلْـكَفُّ مَلْمسا

الباب الثامن والثلاثون

﴿ قولهم فى الفقر ﴾

قال أبو محمد الجريرى : الفقر أن لا تطلب المعدوم حتى تفقد الموجود . معناه : أن لا تطلب الأرزاق إلا عند خوف العجز عن القيام بالفرض . قال ابن الجلاء : الفقر أن لا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك . على معنى قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٢]

قال أبو محمد رويم بن محمد : الفقر عُدْم كل موجود ، وترك كل مفقود .

وقال الكنانى : إذا صحّ الافتقار إلى الله صحّ الغنى بالله ؛ لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر .

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٣
(٢) سورة الحشر : ٩

قال النورى : نعت الفقير السكون عند العُدْم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعض الكبراء : الفقير : هو المحروم من الإرفاق والمحروم من السؤال ، لقوله عليه السلام : « لو أقسم على الله لأبرّه » فدل أنه لا يقسم . قال الدراج : فتشت كنف أستاذى أريد مكحلة ، فوجدت فيه قطعة (فضة) ، فتحيرت . فلما جاء قلت له : إنى وجدت فى كنفك قطعة .

قال : قد رأيتها ! ردّها ، ثم قال: خذها واشتر بها شيئاً .

فقلت له : ما كان أمر هذه القطعة بحقّ معبودك .

قال : مارزقنى الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها . فأردت أن أوصى أن تُشَدّ فى كفنى ، فَأَرُدَّها إلى الله عز وجل .

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سمعت الدورى يقول : كنا ليلة العيد مع أبى الحسن النورى فى مسجد الشونيزى ، فدخل علينا إنساناً . فقال للنورى : أيها الشيخ ، غداً العيد ، ماذا أنت لابسه ، فأنشأ يقول :

قَالُوا : غداً ٱلْعيدُ مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ فقُلتُ خِلْعَةَ سَاقٍ عَبْدَهُ جُرَعا
فقرٌ وَصَبرٌ هُما : ثوبَايَ تَحْتَهُمَا قَلبٌ يرَى رَبَّهُ ٱلْأَعْيَادَ وَٱلْجُمَعا
أَحْرَى ٱلْملابس أن تلقى الحبيبَ بها يَوْمَ ٱلتَّزَاوُرِ فِى ٱلثَّوبِ ٱلَّذِى خَلَعا
الدَّهْرُ لِى مَأْتَمٌ إنْ غِبتَ يَا أَمَلِى وَالْعِيدُ مَادُمْتَ لِى مَرْأًى وَمستمعا

سئل بعض الكبراء : ما الذى منع الأغنياء عن العود بفضول ماعندهم على هذه الطائفة ؟ .

فقال : ثلاثة أشياء ، أحدها : أن الذى فى أيديهم غير طيب ، وهؤلاء خالصة الله ؛ وما اصطنع إلى أهل الله فمقبول ، ولا يقبل الله تعالى إلا الطيب .

والثانى : أنهم مستحقون فيحرم الآخرون بركة العود عليهم والثواب فيهم .

Marfat.com

والثالث : أنهم مرادون بالبلاء فيمنعهم الحقّ عن العود عليهم ليتم مراده فيهم .

سمعت فارسا يقول : قلت لبعض الفقراء مرّة ـ ورأيت عليه أثر الجوع والضرّ ـ : لِمَ لاتسأل الناس فيطعموك ؟ .

قال : أخاف أن أسألهم فيمنعونى فلا يفلحوا ، وقد بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو صدق السائل ما أفلح من منعه » .

الباب التاسع والثلاثون

﴿ قولهم فى التواضع ﴾

سئل الجنيد عن التواضع . فقال : هو : خفض الجناح ، وكسر الجانب .

قال رويم : التواضع : تذلل القلوب لعلاّم الغيوب .

قال سهل : كمال ذكر الله : المشاهدة ، وكمال التواضع : الرضا به .

وقال غيره : التواضع : قبول الحق من الحق للحق .

وقال آخر : التواضع : الافتخار بالقلة ، والاعتناق للذلة ، وتحمل أثقال أهل الملة .

الباب الأربعون

﴿ قولهم فى الخوف ﴾

ن أبو عمرو الدمشقى : الخائف : من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف . من العدو .

قال أحمد ‌ٮ السيد حمدويه : الخائف : الذى يخافه المخلوقات .

قال أبو عبد الله بن الجلاء : الخائف : الذى تأمنه المخلوقات .

Marfat.com

قال ابن خبيق : الخائف : الذى يكون بحكم كل وقت : فوقت تخافه المخلوقات ، ووقت تأمنه ؛ الذى تخافه المخلوقات : هو الذى غلب عليه الخوف فصار خوفا كله ، فيخافه كل شىء ، كما قيل : من خاف الله خافه كل شىء . والذى أمنته المخاوف : هو الذى إذا طرقت المخاوف أذكارَه لم تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله تعالى ، ومن غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ، أنشدونا :

يُحَرَّقُ بِالنّارِ مَنْ يَحِسُّ بِهَا   فَمَنْ هُوَ النّارُ كَيْفَ يَحْتَرِقُ

قال رويم : الخائف : الذى لايخاف غير الله . معناه لايخافه لنفسه ، وإنما يخافه إجلالا له ، والخوف للنفس خوف العقوبة .

قال سهل : الخوف : ذكر ، والرجاء أنثى . معناه منهما يتولد حقائق الإيمان .

وقال : إذا خاف العبد غير الله، ورجا الله تعالى أمّن الله خوفه ، وهو محجوب .

الباب الحادى والأربعون

﴿ قولهم فى التقوى ﴾

قال سهل : التقوى : مشاهدة الأحوال على قدم الانفراد . معناه أن يتقى مما سوى الله سكونا إليه واستحلاء له .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [1] أى بجميع استطاعتكم .

قال سهل : ما استطعتم إظهار الفقر والفاقة إليه .

قال محمد بن سنجان : التقوى : ترك مادون الله .

قال سهل ، فى قوله تعالى : ﴿ ولكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [2] ، قال :

---

(١) : التغابن ــ ١٦ .

(٢) : الحج ــ ٣٧ .

Marfat.com

هو التبرى وهو الاخلاص ، قال غيره : أصل التقوى مجانبة النهى ومباينة النفس فعلى قدر مافاتهم من حظوظ أنفسهم أدركوا اليقين ، أنشدونا للنورى :

إِنِّى أُتَقَيْتُكَ لَا مَهَا بَةَ مِنْ مُحَاذَرَةِ ٱلْمَصِيرْ
إِنِّى وَكَيْفَ وَأَنْتَ لِى إِلْفٌ يَذُوقُ مَدَى ٱلسَّمِيرْ
تُوفِى ٱلسَّرَائِرَ سِرَّهَا وَتَحُوطُ مَكْنُونَ ٱلضَّمِيرْ
لَـٰكِنْ أُجِلُّكَ أَنْ أُجِـ لَّ سِوَاكَ لِلْخَطَرِ ٱلْحَقِيرْ

الباب الثانى والأربعون

﴿ قولهم فى الإخلاص ﴾

قال الجنيد : الإخلاص ماأريد به الله من أى عمل كان .

قال رويم : الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل .

سمعت فارسا يقول : قدم على أبى بكر القحطبى قوم من الفقراء من أهل خراسان، فقال لهم أبو بكر : بم يأمركم شيخكم ؟ يعنى أبا عثمان .

فقالوا : يأمرنا بكثرة الطاعة معالتزام رؤية التقصير فيها . فقال : ويحه ألا يأمركم بالغيبة عنها برؤية مبديها ؟ .

قيل لأبى العباس بن عطاء : ما الخالص من الأعمال ؟ .

قال : ماخلص من الآفات .

قال أبو يعقوب السوسى : الخالص من الأعمال مالم يعلم به ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ، ولا النفس : فتعجب به .

معناه : انقطاع العبد إلى الله جل وعز ، والرجوع إليه من فعله . والله الموفق .

Marfat.com

الباب الثالث والأربعون

﴿ قولهم فى الشكر ﴾

قال الحارث المحاسبي : الشكر : زيادة الله للشاكرين .

معناه : إذا شكر زاده الله توفيقا فزاد شكراً .

قال أبو سعيد الخزاز : الشكر : الاعتراف للمنعم ، والاقرار بالربوبية .

قال أبو على الروذبارى :

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّى لَهَا لُغَةٌ   تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَازَادَ شُكْرِى إِذْ شَكَرْتُ بِهِ   إِلَيْكَ أَزْيَدَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْمِنَنِ

قال بعض الكبراء : الشكر : هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم .

قال يحيى بن معاذ : لستَ بشاكر مادمت تشكر ، وغاية الشكر التحير . وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها ، وهذا لايتناهى .

أنشدونا لابى الحسن النورى :

سَأَشْكُرُ لَا أَنِّى لَا أُجَازِيكَ مُنْعِماً   بِشُكْرِى وَلٰكِنْ كَىْ يُقَالَ لَهُ الشُّكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيَّامِى لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا   وَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ عَلَى الشَّاكِرِ الذِّكْرُ

كان بعض الكبراء ، يقول فى مناجاته : اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك ، فاشكر نفسك عنى .

الباب الرابع والأربعون

﴿ قولهم فى التوكل ﴾

قال سرى السقطى : التوكل : الانخلاع من الحول والقوة .

Marfat.com

وقال ابن مسروق : التوكل: الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام .

قال سهل : التوكل الاسترسال بين يدى الله تعالى .

قال أبو عبد الله القرشى : التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله .

قال أبو أيوب : التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية .

قال الجنيد : حقيقة التوكل : أن يكون لله تعالى كما لم يكن ، فيكون الله له كما لم يزل .

قال أبو سعيد الخراز : قامت الكفايات من السيد لأهل مملكته ، فاستغنوا عن مقامات التوكل عليه ليكفيهم ، فما أقبح التقاضى بأهل الصفاء . جعل التوكل عليه لأجل الكفاية تقاضى القيام بالكفاية .

كما قال الشبلى : التوكل : كدية حسنة .

قال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل ، فإنه وجه بلا قفا . يريد توكل العناية لا توكل الكفاية وهو أن لا يطالبه بالأعواض .

وقال بعضهم : التوكل : سر بين العبد و بين الله .

معناه ، كما قال بعض الكبراء : حقيقة التوكل ، ترك التوكل ، وهو أن يكون الله لهم حيث كان لهم إذ لم يكونوا موجودين .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف ؟ .

فقال : إلى التوكل .

فقال : ويحك بعد أن تسعى فى عمران بطنك ! !

معناه : إن توكلك عليه لاجل نفسك احتزاز من مكروه يصيبها .

الباب الخامس والأربعون

﴿ قولهم فى الرضا ﴾

قال الجنيد : الرضا : ترك الاختيار .

قال الحارث المحاسبى : الرضا : سكون القلب تحت جريان الحكم .

قال ذو النون : الرضا : سرور القلب بمرّ القضاء .

قال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح .

قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، فإنه اختار له الأفضل .

قال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنى . فقالت له : أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟ ! .

قال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ، فطوبى لهم وحسن مآب .

يريد قوله جل وعز : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (١) .

فمعناه الرضا فى الدنيا تحت مجارى الأحكام ، يورث الرضوان فى الآخرة بما جرت به الأقلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٢) ﴾ ، فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحّدين من أهلها ، فإن المشركين لايؤذن لهم فى الحمد ، لأنهم محجوبون .

أنشدونا للنورى :

---

(١) المائدة ـ ١١٩ .

(٢) الزمر ـ ٧٥ .

إِنَّ ٱلرِّضَا لَمَرَارَاتٌ تجرّعُها عَنِ ٱقْنُوعِ إِذَا مَا ٱستُعْذِبَ الْكَدَرُ
عَوَاقِبٌ أَشْهَدَتْ بَعْضَ ٱلْحُضُورِ فَمَا يَرْعَى ٱلتَّكَثُّرَ إِلَّا نَاقَةٌ نَزُرٌ(١)

الباب السادس والأربعون

﴿ قولهم فى اليقين ﴾

قال الجنيد : اليقين : ارتفاع الشك .

قال النورى : اليقين : هوالمشاهدة . قال ابن عطاء : اليقين مازالت عنه المعارضة على دوام الوقت .

قال ذو النون : كل مارأته العيون نسب إلى العلم ، وما علمته القلوب نسب إلى اليقين .

وقال غيره : اليقين : عين القلب .

قال عبد الله : اليقين : اتصال البين وانفصال ما بين البين .

معناه : قول حارثة كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، اتصلت رؤيته بالغيب ، وارتفع ما بينه و بين الغيب من الحجب .

قال سهل : اليقين : المكاشفة ، كما قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا و بالله التوفيق .

الباب السابع والأربعون

﴿ قولهم فى الذكر ﴾

حقيقة الذكر : أن تنسى ما سوى المذكور فى الذكر ، لقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾(٢) .

---

(١) هى الناقة التى لا تلد ، وقيل التى لا تحلب .
(٢) سورة الكهف ٢٤

Marfat.com

يعنى إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون ، قيل ومن المفردون يارسول الله ؟ فقال : الذاكرون كثيراً والذاكرات » . والمفرد الذى ليس معه غيره .

وقال بعض الكبار : الذكر طرد الغفلة ، فإذا ارتفعت الغفلة ، فأنت ذاكر وإن سكتّ .

وأنشدونا للجنيد :

ذَكَرْتُكَ لا أنى نَسِيتُكَ لَمْحَةً وَأَيْسَرُ مَا فِى ٱلذِّكْرِ ذِكْرُ لِسانى

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سألت بعض الكبار ، فقلت : مابال نفوس العارفين تتبرّم بالأذكار ، وتستروح إلى الأفكار ، وليس يفضى الفكر إلى مقرّ ، ولأذكارها أعواض تسرّ ؟

فقال استصغرتْ ثمرات الأذكار ، فلم تحملها عن مكابداتها ، وبهرها شرف ماوراء الأفكار فغيبها عن ألم مجاهداتها .

معنى قوله : استصغرت ثمرات الأذكار ، لأنها كلها حظوظ النفس ، والعارفون قد أعرضوا عن النفوس وحظوظها ، وأما أفكارهم : فإنها تكون فى جلال الله وهيبته ومنته وإحسانه ، فهى تفكر فيما لله تعالى عليها إجلالا له ، وتعرض عما لها عند الله حرمةً له ، فى قوله عليه السلام ، خبراً عن الله عز وجل : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

معناه من شغله مشاهدة عظمتى عن ذكر لسانه ، لأن ذكر اللسان كله مسئلة .

وأخرى : أن مشاهدة العظمة تحيره فتقطعه عن الذكر له ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك » .

أنشدونا للنورى :

Marfat.com

أريدُ دَوَامَ ٱلذِّكْرِ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ فَيَا عَجَباً مِنْ غَيْبَةِ ٱلذِّكْرِ فِى ٱلْوَجْدِ
وَأَعْجَبُ مِنْهُ غَيْبَةُ ٱلْوَجْدِ تَارَةً وَغَيْبَةُ عَيْنِ ٱلذِّكْرِ فِى ٱلْقُرْبِ وَٱلْبُعْدِ

قال الجنيد : من قال : الله ، عن غير مشاهدة فهو مفترى . يدلّ على صحة قوله قول الله تعالى : ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أكذبهم اللهُ وإن كانت الكلمة صدقاً ، لأنها لم تكن عن مشاهدة .

وقال غيره : القلب للمشاهدة ، واللسان للعبارة عن المشاهدة ، فمن عبر عن غير مشاهدة فهو شاهد زور .

أنشدونا لبعض الكبار :

أَنْتَ ٱلْمُوَلِّهُ لِى لَا ٱلذِّكْرُ وَلَّهَنِى حَاشَا لِقَلْبِى أَنْ يَعْلَقْ بِهِ ذِكْرِى
ٱلذِّكْرُ وَاسِطَةٌ يَحْجُبكَ عَنْ نظرى إِذَا تَوَشَّحه مِنْ خَاطِرِى فِكْرِى

معناه : الذكر صفة الذاكر ، فإن غبتُ فى ذكرى كانت غيبتى فى ، وإنما يحجب العبدَ عن مشاهدة مولاه أوصافُه .

قال سرى السقطى : صحبت زنجيا فى البرية ، فرأيته كلما ذكر الله تغير لونه وابيض . فقلت : يا هذا أرى عجبا : إنك كلما ذكرت الله حالت لِبِسْتُك وتغيرت صفتك . فقال : يا أخى أما إنك لو ذكرت الله حقّ ذكره لحالت لبستك وتغيرت صفتك ، ثم أنشأ يقول :

ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا لِننسىَ فَنَذْكُرُ وَلَكِنْ نَسِيمُ ٱلْقُرْبِ يَبْدُو فَيَبْهر
فَأَفْنى بِهِ عَنِّى وَأَبْقىٰ به لَهُ إِذْ ٱلْحَقّ عَنْهُ مُخْبِرٌ وَمُعَبِّرٌ

أنشدونا لابن عطاء :

---

(١) سورة المنافقون ١

أرى الذِّكرَ أصنافاً فمن الذِّكرِ حشوها ... ودادٌ وشوقٌ يبعثان على الذِّكرِ
فذكرٌ أليفُ النفسِ ممتزجٌ بها ... يحلُّ محلَّ الرُّوح فى طرفها يسرى
وذكرٌ يُعزِّى النفسَ عنها لأنَّهُ ... لها متلفٌ من حيثُ تدرى ولا تدرى
وذكرٌ علا منِّى المفارقَ والذُّرى ... يجلُّ عن الإدراكِ بالوهمِ والفكرْ
يراهُ لحاظُ العينِ بالقلبِ رؤيةً ... فيجفو عليه أنْ يُشاهد بالذِّكرْ

صنّفَ الذكر أصنافا ، فالأول : ذكر القلب ، وهو أن يكون المذكور غير منسى فيذكر . والثانى : ذكر أوصاف المذكور ، والثالث : شهود المذكور فيفنى عن الذكر ، لأن أوصاف المذكور تفنيك عن أوصافك فتفنى عن الذكر .

الباب الثامن والأربعون

﴿ قولهم فى الأنس ﴾

سئل الجنيد عن الأنس ما هو ؟

فقال : الأنس : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

معنى ارتفاع الحشمة : أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف .

وسئل ذو النون عن الأنس . فقال : هو انبساط المحبّ إلى المحبوب .

معناه : ما قال الخليل عليه السلام : ﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ﴾ (١) ، وماقال الكليم عليه السلام : ﴿ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ وقوله : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ (٢) شبه العذر أى لا تطيق .

وسئل إبراهيم المارستانى عن الأنس . فقال : هو فرح القلب بالمحبوب .

وسئل الشبلى عن الأنس فقال : هو وحشتك منه .

---

(١) سورة البقرة ٢٦٠

(٢) سورة الأعراف ١٤٣

Marfat.com

وقال ذو النون : أدنى مقام الأنس أن يلقى فى النار فلا يغيبه ذلك عمّن أنس به .

وقال بعضهم : الأنس هو أن يستأنس بالأذكار فيغيب به عن رؤية الأغيار .

أنشدونا ، لرويم :

شغَلْتَ قَلْبِى بِمَا لَدَيْكَ فَمَا ... ينْفكّ طُولَ الْحَيَاةِ مِنْ فِكرى
آنَسْتَنِى مِنْكَ بالْودَادِ وَقد ... أَوْحَشْتنى مِنْ جَمِيع ذا البَشَر
ذِكْرُكَ لِى مُؤنِسٌ يُعارِضُنى ... يُوعِدُنِى عَنْكَ مِنْكَ بالْظَفَر
وَحَيْثُ ما كُنْتَ يامَدَى هِمَمى ... فَأنْتَ مِنى بِمَوْضِعِ النَّظَر

الباب التاسع والأربعون

﴿ قولهم فى القرب ﴾

سئل سرى السقطى عن القرب فقال : هو الطاعة .

وقال غيره : القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له ، لقوله عز وجل ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١) .

سئل رويم عن القرب فقال : إزالة كل معترض .

وسئل غيره عن القرب فقال : هو أن نشاهد أفعاله بك .

معناه أن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك .

وأخرى أن لا تراك فاعلا ، لقوله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ (٢)

وأنشدونا للنورى :

---

(١) سورة العلق ١٩ .
(٢) سورة الأنفال ١٧ .

Marfat.com

أرَانِى جَمْعِى فِى فَنَائِى تَقَرُّباً ... وَهَيْهَاتَ إلَّا مِنكَ عَنْكَ ٱلتَّقَرُّبُ
فَمَا عَنْكَ لى صَبْرٌ وَلَا فِيكَ حِيلَة ... وَلَا مِنْكَ لِى بُدٌّ وَلَا عَنكَ مَهْرَبُ
تَقَرَّبَ قَوْمٌ بالرجَا فَوَصَلْتَهُمْ ... فَمَا لى بعيدا مِنكَ وَٱلْكُلّ يَعْطَبُ

معناه أرانى حالى أن جمعى بك وفنائى عما سواك : تقربٌ إليك ، والجمع والفناء صفتان . ولا يكون القرب منك بصفتى بل بك يكون القرب إليك منك . ثم قال : تقرب إليك أقوام بأفعالهم وطاعاتهم ، فوصلتهم تفضلا منك ، وليست لى أفعال أتقرب بها إليك وأنا أهلِكُ شوقا إلى القرب منك ، ولاسبيل لى إليه من حيث أنا.

أنشدونا للنورى أيضا :

يامَنْ أشاهدُهُ عَنِّى فَأَحْسِبُهُ ... مِنّى قريباً وَقَدْ عَزَّتْ مَطَالِبُهُ
إذَا سِمْت نَفْسى سَلْوَةً عَنهُ رَدَّنِى ... إلَيْهِ شُهُودٌ لَيْسَ تَفْنى عَجَائِبُهُ

معنى السلوة الإياس ، يقول : كلما أيست من حيث أنا ، ردنى عن الإياس مامنه من الفضل الذى بدا به .

وقال الشبلى : قد تحيرت فيك ، خد بيدى يادليلا لمن تحير فيك .

الباب الخمسون

﴿ قولهم فى الاتصال ﴾

معنى الاتصال : أن ينفصل بسرّه عما سوى الله ، فلا يرى بسره بمعنى التعظيم غيرَه ، ولا يسمع إلا منه .

قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب .

ومشاهدات الأسرار مكاشفات القلوب ، كقول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا .

ومشاهدات الأسرار : كقوله عليه السلام : « اعبد الله كأنك تراه » ، وكقول ابن عمر : كنا نتراءى الله فى ذلك المكان :

وقال بعضهم : الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول .

معناه : أن يشغله تعظيم الله عن تعظيم من سواه .

وقال بعض الكبار : الاتصال : أن لا يشهد العبد غيرَ خالقه . ولا يتصل بسره خاطرٌ لغير صانعه .

قال سهل : حُرِّكوا بالبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا .

الباب الحادى والخمسون

﴿ قولهم فى المحبة ﴾

قال الجنيد : المحبة ميل القلوب .

معناه : أن يميل قلبه إلى الله و إلى مالله من غير تكلف .

وقال غيره : المحبة : هى الموافقة ، معناه : الطاعة له فيما أمر ، والانتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم وقدّر (١) .

قال محمد بن على الكتانى : المحبة : الإيثار للمحبوب .

قال غيره : المحبة : إيثار ما تحب لمن تحبّ .

قال أبو عبد الله النباجى : المحبة : لذّة فى المخلوق ، واستهلاك فى الخالق .

معنى الاستهلاك : أن لا يبقى لك حظ ، ولا يكون لمحبتك علة ، ولا تكون قائما بعلة .

قال سهل : من أحبّ الله فهو العيش ، ومن أحبّ فلا عيش له .

معنى هو العيش أنه يطيب عيشه ، لأن المحبّ يتلذّذ بكلّ مايرد عليه من المحبوب من مكروه أو محبوب ، ومعنى لا عيش له لأنه يطلب الوصول إليه ويخاف الانقطاع دونه فيذهب عيشه .

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

وقال بعض الكبار : المحبة لذّة ، والحقّ لايتلذّذ به ، لأن مواضع الحقيقة دهش واستيفاء وحيرة .

فمحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار ، فلا يستجيز تعظيم سواه ، ومحبة الله للعبد : هو أن يُبليه به فلا يصلح لغيره .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (١) .

ومعنى لا يصلح لغيره : أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الأحوال.

قال بعضهم : المحبة على وجهين : محبة الإقرار ، وهو للخاصّ والعامّ ، ومحبة الوجد من طريق الإصابة ، فلا يكون فيه رؤية النفس والخلق ، ولا رؤية الأسباب والأحوال ، بل يكون مستغرقا فى رؤية مالله ومامنه .

أنشدونا لبعضهم (٢) :

أحبُّكَ حُبَّيْن حُبَّ ٱلْهوَى ... وَحُبًّا لأنكَ أَهْلٌ لذاكا
فأمَّا ٱلَّذِى هُو حُبَّ ٱلْهوى ... فشغْلى بذِكْركَ عَمَّن سواكا
وأمَّا ٱلَّذى أنْت أهْلٌ لَهُ ... فلَستُ أرَى ٱلْكوْنَ حَتَّى أراكا
فماَ ٱلْحَمْدُ فِى ذا ولا ذاكَ لى ... وَلكنْ لك ٱلْحَمْدُ فى ذا وَذاكا

قال ابن عبد الصمد : المحبة : هى التى تعمى وتصم ؛ تعمى عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوبا .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حبك الشىء يعمى و يصم » وأنشد :

أَصمنى ٱلْحُبُّ إلّا عَن تَسَامُرِهِ ... فَمن رأى حُبَّ حُبٍّ يُورثُ الصمَّا ؟!
وَكَفَّ طرْفى إلّا عَن رعايَتِهِ ... وَٱلْحُبُّ يُعْمىوَفيهِ ٱلْقتلُإن كتِما !!

وأنشد أيضا :

فرْطُ ٱلْمَحبةِ حَالٌ لا يقاومُها ... رَأىُ الأصيل إذا مَحْذُورُهُ قهرا

---

(١) سورة طه ٤٣ .

(٢) هذه الأبيات لرابعة العدوية .

Marfat.com

يلذّ إنْ عَدَلت منهُ قوارعُهُ ... وَإنْ تزيّد فى تَعْديلهِ بَهرا

(فصل) إن للقوم عبارات تفرّدوا بها ، واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم ، نخبر ببعض مايحضر ، ونكشف معانيها بقول وجيز .

وإنما نقصد فى ذلك إلى معنى العبارة دون ماتتضمنه العبارة ، فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلا عن الكشف ، وأمّا كنه أحوالهم فإن العبارة عنها مقصورة وهى لأر بابها مشهورة .

الباب الثانى والخمسون

﴿ قولهم فى التجريد والتفريد ﴾

فمعنى التجريد : أن يتجرّد بظاهره عن الأعراض ، و بباطنه عن الأعواض ، وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئا ، ولا يطلب على ماترك منها عوضا من عاجل ولا آجل . بل يفعل ذلك لوجوب حقّ الله تعالى لا لعلة غيره ، ولا لسبب سواه ، ويتجرّد بسرّه عن ملاحظة المقامات التى يحلها ، والأحوال التى ينازلها ، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها .

والتفريد : أن يتفرّد عن الأشكال ، وينفرد فى الأحوال ، و يتوحد فى الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده ، فلا يكون فيها رؤية نفس ، ولا مراعاة خلق ، ولا مطالعة عوض ، ويتفرّد فى الأحوال عن الأحوال ، فلا يرى لنفسه حالا ، بل يغيب برؤية محوّلها عنها ، و يتفرد عن الأشكال ، فلا يأنس بها ، ولا يستوحش منها .

وقيل : التجريد أن لا يملِك ، والتفريد أن لا يُملَك .

أنشدونا لعمرو بن عثمان المكى .

تفَرّدَ باللهِ ألفريدِ فَريدُ ... فظَل وَحيداً ، وَأْلمَشُوقُ وَحيـدُ

وَذاكَ لِأَنَّ المُفْرَدِينَ رَأَيْتُهُمْ عَلَى طَبَقَاتٍ ، وَالدُّنُوُّ بَعِيدُ
فَمِنْ مُفْرَدٍ يَسْمُو بِهِمَّةِ قَلْبِهِ عَنِ المُلْكِ جَمْعاً فَهُوَ عَنْهُ يَحِيدُ
وأدْمنَ سَيْراً فِي السُّمُوِّ تَوَحُّداً وَكلُّ وَحيدٍ بِالْبَلَاءِ فَرِيدُ
وَآخَرُ يَسْمُو فِي الْعُلُوِّ تفرُّداً عَنِ النَّفْس وَجداً ، فَهِي مِنْهُ تَبِيدُ
وآخرُ مَفْكُوكٌ منَ الأسْر بِالفنَا فأصْبَحَ خِلْواً ، وَاجْتَبَاهُ وَدُودُ

فالذى أدمن سيراً فى السمو متوحّد بالبلاء ، لأنه لاسبيل له إلى مايطلب ، ولا يساكن شيئا دونه ، والذى تفرّد عن النفس وجدا ، فلا يحسّ بالبلاء ، والذى فكّ من أسر النفس بالفناء عنها هو المجتبى المقرّب المتفرّد بالحقيقة .

الباب الثالث والخمسون

﴿ قولهم فى الوجد ﴾

ومعنى الوجد : هو ماصادف القلب : من فزع ، أو غم ، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل .

قالوا : وهو سمع القلوب وبصرها ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

فمن ضعف وجده تواجد ، والتواجد ظهور مايجد فى باطنه على ظاهره ، ومن قوى تمكن فسكن .

قال الله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الحج ٤٦ .
(٢) سورة ق ٣٧ .
(٣) سورة الزمر ٢٣ .

Marfat.com

قال النورى : الوجـد لهيب ينشأ فى الأسرار ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عند ذلك الوارد .

وقالوا : الوجد مقرون بالزوال ، والمعرفة ثابتة بالله تعالى لاتزول .

أنشدونا للجنيد :

الوَجْدُ يُطربُ مَنْ فى الوَجْدِ راحتُهُ   وَالوَجْدُ عِنْدَ حُضُورِ الْحَقِّ مَفْقُودُ
قدْ كانَ يُطرِبُنِي وَجْدِى فأشْغَلَنِي   عَنْ رُؤْيةِ الوَجْد مافى الوَجْدِ مَوْجُودُ

وأنشدونا لبعض الكبار :

أبْدَى الْحِجَابَ فَذَلَّ فى سُلْطَانِهِ   عِزُّ الرُّسُومِ وَكُلُّ مَعْنى يُحْضَرُ
هَيْهَاتَ يُدْرِكُ بِالوُجُودِ وَإِنَّمَا   لَهَبُ التَّوَاجُـدِ رَمْزُ عجزٍ يُقْهَرُ
لا الوَجْدُ يُدْرِكُ غيْرَ رَسْمٍ دَاثِرٍ   وَالوَجْدُ يَدْثِرُ حِيْنَ يَبْدُو الْمَنْظَرُ
قدْ كنْتُ أطربُ لِلوجودِ مُرَوَّعاً   طَوْراً يُغَيِّبُنى وطوراً أحْضرُ
أفْنى الوجُودَ بِشَاهِـدٍ مَشْهودُهُ   أفْنى الوجُودَ وَكُلُّ مَعْنًى يُذْكَرُ

وقال بعضهم : الوجـد بشارات الحق بالترقى إلى مقامات مشاهداته .

وأنشدونا لبعضهم :

مَنْ جَادَ بالوَجْدِ أحْرَى أنْ يَجُودَ بِمَا   يُفْنِي الوجُودَ منَ الأفْضَالِ وَالْمِنَنِ
أيْقنْتُ حينَ بَدَا بِالوَجْدِ يَبْعَثُنِي   إنَّ الْجَوَادَ بِهِ يُوفِي عَلَى الْحَسَنِ

وللشبلى :

الوَجْدُ عِنْدِى جُحودٌ   مالَمْ يَكُنْ عَنْ شُهودى
وَشَاهِدُ الْحَـقِّ عِنْدِى   يُفْـنِي شُهودَ الوُجُودِ

الباب الرابع والخمسون

﴿ قولهم فى الغلبة ﴾

الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ،

ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله . فربما خرج إلى بعض ما يُنكِر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غاباتُ ما يجده ، ويكون الذى غلب عليه : خوف ، أو هيبة ، أو إجلال ، أو حياء ، أو بعض هذه الأحوال .

كما جاء فى الحديث عن أبى لبابة بن عبد المنذر ، حين استشاره بنو قريظة ، لما استنزلهم النبى صلى الله عليه وسلم على حكم سعد بن معاذ ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح ، ثم ندم على ذلك ، وعلم أنه قد خان الله ورسوله ، فانطلق على وجهه حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت .

فهذا لما غاب عليه الخوف من الله عز وجل ، حال بينه وبين أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾[1] الآية .

وليس فى الشريعة ارتباط بالسوارى والعمد .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما أن استبطأه : « أما لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . فلما علم الله صدقه ، وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له ، فأنزل الله توبته فأطلقه النبى صلى الله عليه وسلم .

فأبو لبابة رضى الله عنه ، لما أن غلب عليه الخوف لم يمكنه ملاحظة السبب ، وهو استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ الآية ، ولم يمكنه مراعاة الأدب ، والأدب : أن يعتذر إلى من أذنب إليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة النساء ٦٤ ، وتكملة الآية « لوجدوا الله توابا رحيما »

وكما غلب على عمر رضى الله عنه حميـة الدين ، حين اعترض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية ، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر أليس هذا برسول الله !

قال : بلى .

قال : ألسنا بالمسلمين !

قال : بلى .

قال : أليسوا بالمشركين !

قال : بلى .

قال فعلام نُعْطِى الدنية فى ديننا ؟

فقال أبو بكر : ياعمر الزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم غلب عليه مايجد ، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مثـل ما قال لأبى بكر ، وأجابه النبى صلى الله عليـه وسلم ، كما أجابه أبو بكر ، حتى قال : « أنا عبـد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيّعنى » .

فـكان عمر يقول فما زلت أصوم وأتصدّق ، وأعتق ، وأصـلى من الذى صنعتُ يومئـذ ، مخـافة كلامى الذى تـكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

وكاعتراضه على النبى صـلى الله عليه وسـلم أيضا ، حين صلى على عبـد الله ابن أبىّ ، قال عمر فتحوّلتُ حتى قمت فى صدره ، وقلتُ : يارسول الله أتصلى على هذا ، وقد قال يوم كذا : كذا : يعدّد أياماً له ، حتى قال له : « أخِّر عنى ياعمر ، إنى خيرت فاخترت » وصلى عليه ، فقال عمر : فعَجَبٌ لى وجرأتى على رسول الله .

Marfat.com

ومنه حديث أبى طيبة ، حين حجم النبى صلى الله عليه وسلم ، فشرب دمه ، وذلك محظور فى الشريعة ، ولكن فعله فى حال الغلبة ، فعذره النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد احتَظرْتَ بحظائرَ من النار » .

فهذه كلها وأمثالها كثيرة تدل على أن حاله الغلبة حاله صحيحة ، ويجوز فيها مالا يجوز فى حال السكون ، ويكون الساكنْ فيها بما هو أرفع منه فى الحال أمكنَ وأتم حالةً ؛ كما كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

الباب الخامس والخمسون

﴿ قولهم فى السكر ﴾

وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء . وهو أن لا يميز بين مرافقه ومَلاذِّه ، و بين أضدادها فى مرافقة الحق ، فإن غلبات وجود الحق تُسْقِطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويُلِذّه .

كما روى فى بعض الروايات فى حديث حارثة أنه قال : استوى عندى حجرها ومدرها ، وذهبها وفضتها .

وكما قال عبد الله بن مسعود : ما أبالى على أىّ الحالين وقعت : على غنى أو فقر ، إن كان فقراً فإنّ فيه الصبر ، وإن كان غنى فإن فيه الشكر .

ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضدّه ، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر .

وأنشد بعضهم :

قد استولى على قلبى هواك ... ومالى فى فؤادى من سواك
فلو قطعتنى فى الحب إرباً ... لما حنّ الفؤاد إلى سواك

Marfat.com

والصحو الذى هو عقيب السكر : هو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ ، فيختار المؤلم فى موافقة الحق ولا يشهد الألم ، بل يجد لذة فى المؤلم .

كما جاء عن بعض الكبار أنه قال : لو قطّعنى البلاء إربا إربا ما ازددت لك إلا حبّا حبّا .

وعن أبى الدرداء أنه قال : أحبّ الموت اشتياقا إلى ربى ، وأحبّ المرض تكفيراً لخطيئتى ، وأحبّ الفقر تواضعا لربى .

وعن بعض الصحابة أنه قال : ياحبذا المكروهان : الموت والفقر .

وهذه الحالة أتمّ لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لايدرى ، ويغيب عن وجود التكرّه ، وهذا يختار الآلام على الملاذ ، ثم يجد اللذّة فيما يؤلمه ، لغلبة شهود فاعله .

والصاحى الذى نعته قبل نعت السكر ، ربما يختار الآلام على الملاذ لرؤية ثواب أو مطالعة عوض، وهو متألم فى الآلام ، ومتلذذ فى الملاذ ، فهو نعت الصحو والسكر. وأنشدونا لبعض الكبار :

كفاكَ بأنَّ الصَّحْوَ أَوْجَد أنَّتِي فَكَيْفَ بِحَالِ السُّكْرِ وَالسُّكْرُ أجْدَرُ
فَحالَاكَ لِي حَالَانِ صَحْوٌ وَسكْرَةٌ فَلَا زِلْتُ فِي حَالَيَّ أصْحو وأسْكَرُ

معناه أن حالة التميز إذا أسقط عنى مالى وأوجد مالك ، فكيف يكون حالة السكر وهو سقوط التميز عنى ، ويكون الله هو الذى يصرّفنى فى وظائفى ويراعينى فى أحوالى . وهاتان حالتان تجريان علىّ ، وهما لله تعالى لا لى ، فلا زلت فى هاتين الحالتين أبداً .

Marfat.com

الباب السادس والخمسون

﴿ قولهم فى الغيبة والشهود ﴾

فمعنى الغيبة : أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها ، وهى أعنى الحظوظ ، قائمة معه موجودة فيه ، غير أنه غائب عنها بشهود ماللحقّ .

كما قال أبو سليمان الدارانى ، و بلغه أنه قيل للأوزاعى : رأينا جاريتك الزرقاء فى السوق فقال أو زرقاء هى ؟

فقال سليمان : انفتحت عيون قلوبهم ، وانطبقت عيون رؤوسهم .

أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذّة الحور فيه ، بقوله أو زرقاء هى .

والشهود : أن يرى حظوظ نفسه .

ومعنى ذلك : أن يأخذ مايأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية لا للذة والشهوة .

وغيبة أخرى وراء هذه ، وهى أن يغيب عن الفناء والفانى ، بشهود البقاء والباقى ، لا غير ، كما أخبر حارثة عن نفسه ، و يكون الشهود شهود عيان ، و يكون غيبته عمّا غاب غيبة شهود الضرّ والنفع ، لا غيبة استتار واحتجاب .

وأنشدونا للنورى :

شَهِدْتُ وَلَمْ أَشْهَدْ لِحاَظاً لَحَظْته ... وَحَسْبُ لِحَاظ شاهِد غـيْرُ مُشْهَدِ
وَغِبْتُ مَغِيباً غابَ لِلغَيْب غَيْبُه ... فَلَاح ظُهورُ غَيْبه غـــيْرُ مُفْقَدِ

وعبر عن الشهود بعض مشائخنا فقال : الشهود أن تشهد ماتشهد مستصغراً له معدوم الصفة ، لما غلب عليك من شاهد الحق كما جاء :

أَلا كُلُّ شىء مَاخَلا اللهَ بَاطِلُ ... وَكلُّ نعيم لا محَالَة زائِلُ

Marfat.com

وكما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ (١) ، رأى السامرى معدوم الصفة فى شهود الحقّ . وأنشدونا للنورى :

تَسَتَّرْتُ عَنْ دَهْرِى بِسِتْرِ هُمُومِهِ مُحَيَّرَةً فِى قَدْرِ مَنْ جَلَّ عَنْ قَدْرِى

فَلَا الدَّهْرُ يَدْرِى أَنَّنِى عَنْهُ غَائِبٌ ولا أنا أدْرِى بِالخُطُوبِ إذَا تَجْرِى

إذا كان كُلى قائماً بوَفائِهِ فلَسْتُ أُبالِى ما حَيِيتُ يَدَ الدَّهْرِ

الباب السابع والخمسون

﴿ قولهم فى الجمع والتفرقة ﴾

أول الجمع جمع الهمّة ، وهو أن تكون الهموم كلها هماً واحداً .

وفى الحديث : « من جعل الهموم همًّا واحداً همَّ المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » .

وهذه حال المجاهدة والرياضة .

والجمع الذى يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالا له ، وهو أن لاتتفرّق همومه ، فيجمعها تكلّف العبد، بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها هماً واحداً، ويحصل الجمع إذ كان بالله وحده دون غيره .

والتفرقة التى هى عقيب الجمع : هو أن يفرّق بين العبد و بين همومه فى حظوظه، و بين طلب مرافقه وملاذّه ، فيكون مفرّقا بينه و بين نفسه ، فلا تكون حركاته لها ، وقد يكون المجموع ناظراً إلى حظوظه ، فى بعض الأحوال ، غير أنه ممنوع منها، قد حيل بينه و بينها ، لايتأتى له منها شىء ، وهو غير كاره لذلك ، بل مريد له ، لعلمه بأنه فعل الحقّ به واختصاصه له ، وجذبه إياه مما دونه .

سئل بعض الكبار عن الجمع : ماهو ؟

---

(١) سورة الأعراف ١٥٥ .

Marfat.com

فقال : جمع الأسرار بما ليس منه بدّ ، وقهرها فيه ، إذ لاشبه له ولا ضدّ .

وقال غيره : جمعهم به حين وصلهم بالقصور عنه ، وفرقهم عنه حين طلبوه بما منهم ، فسنح التشتيت لارتياده بالأسباب ، وحصل الجمع حين شاهدوه فى كل باب .

فالتفرقة التى عبّر عنها : هى التى قبل الجمع . معناه : أن التقرّب إليه بالأعمال تفرقة ، و إذا شاهدوه مقربا لهم فهو الجمع .

أنشدو نا لبعض الكبار :

أُلْجَمْعُ أَفْقَدَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ قِدَماً ... والفَرْقُ أَوْجَدَهُمْ حِيْناً بِلاَ أَثَرِ
فاتَتْ نُفُوسُهُمُ وَالْفَوْتُ فَقْدُهُمُ ... فِى شاهِدٍ جُمِعوا فِيهِ عَنِ الْبَشَرِ
وَجَمْعُهُمْ عَنْ نُعوتِ الرَّسْمِ مَحْوُهُمُ ... عَمَّا يُؤَثِّرُهُ التَّلْوِين بِالغِيَرَ
وَأَلْحِيْنُ حَالٌ تلاشتْ فِى قَدِيمِهِمُ ... عَنْ شاهِدِ أَلْجَمْعِ إضمارٌ بِلاَ صُوَرِ
حَتّى تُوَافى لَهُمْ فِى الْفَرْقِ ماعَطفتْ ... عَلَيْهِمِ مِنْهُ حَيْنَ الوقْتِ فى الحَضَرِ
فالْجَمْعُ غَيْبَتُهُمْ وَالفرْقُ حضرَتُهُمْ ... والوَجْدُ وَالفَقْدُ فى هٰذَيْنِ بِالنَّظَرِ

معنى قوله : الجمع أفقدهم من حيث هم : أى علمهم بوجودهم للحقّ فى علمه بهم : أفقدهم من الحين الذى صاروا موجودين له ، فجعل الجمع حالة العدم ، حيث لم يكن إلا علم الحقّ بهم والفرق : حالة ماأخرجهم من العدم إلى الوجود .

قوله : فاتَتْ نُفُوسُهم : أى رأوها حين الوجود ، كما كانوا إذ هم فقود ؛ لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ، ولا يتغير علم الله فيهم

وجمعهم : هو أن يمحوهم عن نعوت الرسم ، وهى أفعالهم وأوصافهم ، فى أنها لاتؤثر أثر تلوين وتغيير ، بل تكون على ماعلم الله جل وعزّ ، وقدّر وحكم ، فتلاشت حالهم حين وجودهم فى قديم العلم إذ كانوا معدمين لا موجودين مصوّرين ، و إذا أوجدهم أجرى عليهم ماسبق لهم منه .

فالجمع : أن يغيبوا عن حضورهم ، وشهودهم إياهم متصرّفين .

والفرق : أن يشهدوا أحوالهم وأفعالهم .

Marfat.com

والوجد والفقد : حالتان متغايرتان لهم لا للحقّ تعالى .

قال أبو سعيد الخراز : معنى الجمع : أنه أوجدَهم نفسَه فى أنفسهم ، بل أعدمهم وجودَهم لأنفسهم عند وجودهم له .

معناه قوله : « كنت له سمعاً وبصراً ويداً فبى يسمع وبى يبصر » الخبر .

وذلك أنهم كانوا يتصرّفون بأنفسهم لا لأنفسهم ، فصاروا متصرّفين للحقّ بالحقّ .

الباب الثامن والخمسون

﴿ قولهم فى التجلى والاستتار ﴾

قال سهل : التجلى على ثلاثة أحوال .

تجلى ذات ، وهى المكاشفة ، وتجلى صفات الذات ، وهى موضع النور ، وتجلى حكم الذات ، وهى الآخرة ومافيها .

معنى قوله : تجلى ذات ، وهى المكاشفة . كشوف القلب فى الدنيا ، كقول عبد الله ابن عمر : كنا نتراءى الله فى ذلك المكان ، يعنى فى الطواف وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه » . وكشوف العيان فى الآخرة .

ومعنى قوله : تجلى صفات الذات ، وهى موضع النور : هو أن تتجلى له قدرتُه عليه ، فلا يخاف غيره ، وكفايتُه له فلا يرجو سواه .

وكذلك جميع الصفات ، كما قال حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً كأنه تجلى له كلامه فى أخباره فصار الخبر له كالمعاينة .

وتجلى حكم الذات : يكون فى الآخرة : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

قال بعض الكبار : علامة تجلى الحقّ للأسرار : هو أن لا يشهد السرُّ مايتسلط عليه التعبير أو يحويه الفهم ، فمن عبر أو فهم فهو خاطر استدلال لا ناظر إجلال .

Marfat.com

معناه : أن يشهد مالا يمكنه العبارة عنه : أى التعبير عنه : لأنه لا يشهد إلا تعظيما وهيبة ، فيمنعه ذلك عن تحصيل ماشاهد من الحال ، وأنشدونا لبعضهم :

إذا ما بَدَتْ لى تَعَاظَمْتُها فأصْدُر فى حَالِ مَنْ لم يَرِدْ
أجِدْهُ إذا غِبْتُ عَنِّى بهِ وَأَشْهَدُ وجْدِى له قَدْ فُقِدْ
فَلا الوصل يُشْهِدُنى غَيْرَهُ وَلَا أنا أشْهَدُهُ مُنفَرِدْ
جُمِعتُ وَفُرِّقتُ عَنِّى بهِ فَفَرْدُ التَّواصُلِ مَثْنَى العَدَدْ

معناه : إذا بدت الحقيقة غلب علىّ التعظيم ، فأغيب فى شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، فأكون كمن لم يبد له ، و إنما يكون وجودى له إذا غبت عنى ، و إذا غبتُ فُقِدَ وجودى ؛ فحالة الوصل الذى هو فنائى عنى : لا يُشهدُنى غيرَه ، وحالة الانفراد وقيامى بصفتى : يغيبنى عن شهوده ، فكأن جمعى به فرّقنى عنى ، فيكون حالة الوِصل : هو أن يكون الله عز وجل مُصرِّفى ؛ فلا أكون أنا فى أفعالى ، فهو : الله تعالى ، لا أنا .

كما قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [1] ، وهذا لسان الحال ، ولسان العلم : أن الله مصرِّفى ، وأنا به متصرِّف ، فيكون المعبود والعبد .

وقال بعضهم : التجلى رفع حجبة البشرية ، لا أن تتلوّن ذاتُ الحق جل وعزّ عن ذلك وعلا .

والاستتار : أن تكون البشرية حائلة بينك و بين شهود الغيب .

ومعنى رفع حجبة البشرية : أن يكون الله تعالى يُقيمُك تحت موارد مايبدو لك من الغيب ، لأن البشرية لا تُقاوِم أحوالَ الغيب .

والاستتار الذى يعقب التجلى هو أن تستتر الأشياء عنك ، فلا تشاهدها .

---

(١) سورة الأنفال ١٧ .

Marfat.com

كقول عبد الله بن عمر للذى سلم عليه وهو فى الطواف فلم يردّ عليه فشكاه فقال : إنا كنا نتراءى الله فى ذلك المكان ، أخبر عن تجلى الحقّ له بقوله : كنا نتراءى الله وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه .

وأنشدونا لبعض الكبار :

سَرَائِرُ الْحَق لَا تَبْدُو لِمُحْتَجِبِ ... أَخْفَاهُ عَنْكَ فَلَا تَعْرِضْ لِمُخْفِيهِ
لَا تُعْنِ نَفسَكَ فِيما لستَ تُدْرِكُهُ ... حاشا الحَقِيقَةِ أَنْ تَبْدُو فَتَوَويه

الباب التاسع والخمسون

﴿ قولهم فى الفناء والبقاء ﴾

فالفناء:هو أن يفنى عنه الحظوظ ، فلا يكون له فى شىء من ذلك حظّ ، ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلّها شغلاً بما فنى به كما قال عامر بن عبد الله : ماأبالى : امرأة رأيتُ أم حائطا .

والحقّ يتولى تصريفه ، فيصرّفه فى وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظا فيما لله عليه ، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كنت له سمعاً و بصراً » الخبر .

والبقاء الذى يعقبه . هو أن يفنى عما له و يبقى بما لله .

قال بعض الكبار : البقاء : مقام النبيين : أُلبِسُوا السكينة ، لا يمنعهم ماحلّ بهم عن فرضه ، ولا عن فضله .

﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

والباقى : هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فتكون كل حركاته فى موافقات الحقّ دون مخالفاته ، فيكون فانيا عن المخالفات ، باقيا فى الموافقات .

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .

Marfat.com

وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهى عنه كما أمر به ، ولكن على معنى : أن لا يجرى عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى ، دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه فى عاجل أو آجل .

وهذا معنى قولهم : يكون فانيا عن أوصافه ، باقياً بأوصاف الحق ، لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ، لأنه لا يجرّ به نفعا ولا يدفع به ضرا تعالى الله عن ذلك وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرّهم .

فالباقى بالحق : الفانى عن نفسه ، يفعل الأشياء لا لجرّ منفعة إلى نفسه ، ولا لدفع مضرّة عنها ، بل على معنى : أنه لا يقصد فى فعله جر المنفعة ودفع المضرّة ، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها ، بمعنى القصد والنية ، ولا بمعنى : أنه لا يجد حظّا فيما يعمل مما لله عليه يفعله لله ، لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وهما ، أعنى : الخوف والطمع : باقيان معه قائمان فيه ، غير أنه يرغب فى ثواب الله لموافقة الله تعالى ، لأنه رغَّب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه ، ولا يفعله للذة نفسه ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقة له ، لأنه خوّف عباده ويفعل سائر الحركات لحظّ الغير لا لحظ نفسه ، كما قيل : المؤمن يأكل بشهوة عياله .

أنشدونا لبعضهم :

أفْناهُ عَنْ حَظِّهِ فِيما ألمَّ بِهِ ... فَظَلَّ يُبقيهِ فِى رَسْمٍ لِيُبْدِيهِ
لِيأخُذَ الرَّسْمَ عَنْ رَسْمٍ يُكاشِفهُ ... والسِّرُّ يَطفحُ عَنْ حقٍّ يُراعِيهِ

فجملة الفناء والبقاء : أن يفنى عن حظوظه ، ويبقى بحظوظ غيره .

فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً ، وبقاء فى شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلا ، وفناء عن تعظيم ما سوى الله ، وبقاء فى تعظيم الله تعالى .

Marfat.com

ومن فناء تعظيم ماسوى الله : حديث أبى حازم حيث قال : ماالدنيا ؟ أمّا مامضى فأحلام : وأما مابقى فأمانٍ وغرور ؛ وما الشيطان حتى يهاب منه ؟ لقد أطيع فمانفع وعُصى فما ضرّ ، فكان كأنه لادنيا عنده ولاشيطان .

ومن فناء الحظوظ : حديث عبدالله بن مسعود حيث قال : ماعلمت أن فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يريد الدنيا حتى قال الله ﴿ مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (١) الآية ، فكان فانيا عن إرادة الدنيا .

ومن ذلك حديث حارثة قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، ففنى عن العاجلة بالآجلة ، وعن الأغيار بالجبار .

وحديث عبدالله بن عمر : سلم عليه إنسان وهو فى الطواف ، فلم يردّ عليه ، وشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال عبدالله : إنا كنا نتراءى الله فى ذلك المكان .

ومنها حديث عامر بن عبد القيس قال : لأن تختلف فىّ الأسنة أحبّ إلىّ من أن أجد ماتذكرون . يعنى فى الصلاة حتى قال الحسن : ما اصطنع الله ذلك عندنا .

وفناء هو الغيبة عن الأشياء رأسا .

كما كان فناء موسى عليه السلام ، حين تجلى ربه للجبل ﴿ فَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ (٢) فلم يخبر فى الثانى من حاله عن حاله ، ولاأخبر عنه مغيبه به عنها .

وقال أبو سعيد الخراز : علامة الفانى ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، ثم يبدو باد من « قدرة » الله تعالى فيريه ذهابَ حظه من الله تعالى إجلالا لله ، ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ، ويبقى

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢

(٢) سورة الأعراف ١٤٣

رؤية ما كان من الله لله ، ويتفرد الواحد الصمد فى أحديته ، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء .

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة مطالبة الأعواض فيبقى حظه من الله ، وهو رضاه عنه وقربه منه ، ثم يرد عليه حالة من إجلال الله تعالى : أن يقرب مثله ، أو يرضى عن مثله استحقاراً لنفسه ، وإجلالا لربه ، ثم ترد عليه حالة فيستوفيه حق الله تعالى ، فيغيبه عن رؤية صفته التى هى رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلا ما من الله إليه ، ويفنى عنه ما منه إلى الله ، فيكون كما كان : إذ كان فى علم الله تعالى قبل أن يوجده ، وسبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه .

وعبارة أخرى عن الفناء : أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل المولّه : من نعوت الإلهية ، وهو أن يفنى عنه أوصاف البشرية التى هى : الجهل والظلم ، لقوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظلوما جَهُولاً ﴾ (١) ومن أوصافه الكنود والكفور ، وكل صفة ذميمة تفنى عنه ، بمعنى أن يغلب علمهُ جهله وعدلُه ظلمه ، وشكره كفرانه وأمثالها .

قال أبو القاسم فارس : الفناء : حال من لا يشهد صفته . بل يشهدها مغمورةً بمغيبها .

وقال : فناء البشرية ليس على معنى عدمها ، بل على معنى أن تغمد بلذةٍ تُوفى على رؤية الألم ، واللذة الجارية على العبد فى الحال كصواحبات يوسف عليه السلام : ﴿ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (٢) لفناء أوصافهم ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن .

ولبعض أهل العصر :

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢
(٢) سورة يوسف ٣١

غابتْ صِفاتُ ٱلْقاطعاتِ أكُفِّها في شاهدٍ هو في البَرِيّةِ أبْدَعُ
فَفَنِينَ عَنْ أوْصافِهِنَّ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَعْتِهِنَّ تَلَذُّذٌ وَتَوَجُّعُ
وَقِيام إمْرَأةِ ٱلْعَزيز بِيُوسُفٍ يَدُ نفْسِهِ مَا كانَ يوسُف يَقْطَعُ

وأنشدونا في الفناء :

ذَكَرْنا وما كُنّا لِنَنْسَى فَنَذْكُرُ وَلكِنْ نَسيمُ ٱلْقُرْبِ يَبْدُو فيبهرُ
فأفْنَى بهِ عَنّي وَأبقى بهِ له إذَا ٱلْحَقُّ عَنْهُ مُخْبِرٌ وَمعبِّرُ

ومنهم من جعل هذه الأحوال كلها حالا واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغيبة والشهود ، والسكر والصحو .

وذلك أن الفاني عماله : باق بما للحقّ ، والباقي بما للحقّ : فان عماله ، والمفارق مجموع لأنه لايشهد إلا الحقّ ، والمجموع مفارق ، لأنه لايشهد إياه ولاالخلق ، وهو باق لدوامه مع الحقّ ، وهو جامعه به ، وهو فان عما سواه ، مفارق لهم ، وهو غائب سكران لزوال التميز عنه ، ومعنى زوال التميز عنه هو ماقلناه بين الآلام والملاذ ، وبمعنى أن الأشياء تتوحد له فلايشهد مخالفة ، إذ لايصرّفه الحقّ إلا في موافقاته ، وإنما تميزُ بين الشيء وغيره ؛ فإذا صارت الأشياء شيئا واحداً سقط التميز .

وعبر جماعة عن الفناء بأن قالوا : يؤخذ العبد من كل رسم كان له ، وعن كل مرسوم ، فيبقى في وقته بلابقاء يعلمه ، ولافناء يشعر به ، ولاوقت يقف عليه ، بل يكون خالقه عالما ببقائه وفنائه ، ووقته ، وهو حافظ له عن كل مذموم .

واختلفوا في الفاني : هل يرد إلى بقاء الأوصاف أم لا ؟

قال بعضهم : يرد الفاني إلى بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لاتكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها في أمور معاشها ومعادها .

ولأبى العباس بن عطاء فى ذلك كتاب سماه : كتاب عودة الصفات و بدئها .
وأما الكبار منهم والمحققون فلم يروا ردّ الفانى إلى بقاء الأوصاف ، منهم الجنيد والخراز ، والنورى ، وغيرهم .

فالفناء : فضل من الله عز وجل ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له ، واختصاص له به .

وليس هو من الأفعال المكتسبة ، و إنما هو شيء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له ، فلورده إلى صفته كان فى ذلك ساب ماأعطى ،واسترجاع ماوهب وهذا غير لائق بالله عز وجل ، أو يكون من جهة البَداء ، والبداء [1] صفة مَن استفاد العلم ، وهذا من الله عز وجل منفى ، أو يكون ذلك غروراً وخداعا ، والله تعالى لا يوصف بالغرور ، ولا يخادع المؤمنين ، و إنما يخادع المنافقين والكافرين .

وليس مقام الفناء يدرك بالاكتساب ، فيجوز أن يكتسب ضدّه ، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه ، وهو أفضل المراتب ، و به يدرك جميع المقامات ، أجيب عنه : أن الإيمان الذى يجوز الرجوع عنه هو الذى اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه ، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره ، لا من قبل الشهود ، ولا من صحة العقود ، لكنه أقرّ بشيء وهو لا يدرى حقيقة ماأقرّ به .

كما جاء فى الحديث : إن الملك يأتى العبد إذا وضع فى لحده فيقول : ماقولك فى هذا الرجل ؟

فيقول : سمعت الناس يقولون شيئا فقلته

فهذا شاكّ غير متيقن ،

أو يكون أقرّ بلسانه وانطوى على تكذيبه ، كالمناطق الذى أقرّ بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه ، ولكنه أقرّ بلسانه ولم يكذبه بقلبه ولا أضمر خلافه ، ولكن لم

(١) كلمة البداء : من بداله الشيء ، كأن تقول عن إنسان : إنه قرر كذا وأخذ يفعله ثم بداله فى الموضوع رأى آخر فأخذ يغير موقفه الأول . وهذا على الله مستحيل .

يقع له صحة ماأقرّ به اكتسابا ولامشاهدة ، لم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فتقوم له الدلائل على صحته ، ولاشاهدَ بقلبه حالا أزال عنه الشكوك ، وقد سبق له من الله الشقاء ، فاعترضت له شبهة من خاطر أوناظ ففتنته ، فانتقل عنه إلى ضده .

فأما من سبق له من الله الحسنى ، فإن الشبهات لاتقع له ، والعوارض تزول عنه إما اكتسابا من علم الكتاب والسنة ودلائل العقل ، فيزيل خواطر السوء عنه وترد شبهات الناظر له ، إذ لايجوز أن يكون لما خالف الحقّ دلائل الحقّ ، فهذا لاتعترضه الشكوك .

أو يكون ممن قد وقع له صحة الإيمان ، ويردّ الله تعالى عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة ، ويردّ عنه الله الناظر المشكِّك له لطفا به ، فلا يقابله ، فيسلم له صحةُ إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج مناظرة ناظره ولا ما يزيل خاطره .

أو يكون ممن وقع له صحة ما أقرّ به شهوداً أو كشوفا ، كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقرّ به ، حتى حلّ ما غاب عنه من ذلك محلّ ماحضر وأكثر ، لأنه أخبر أنه عزف عن الشاهد ، فصار الغيب له شهوداً ، والشاهد غائبا ، كما قال الدارانى : انفتحت عيون قلوبهم ، فانطبقت عيون رؤوسهم .

فمن وقع له صحة ما أقرّ به من هذه الجهة لم يرجع عن الآخرة إلى الدنيا ، ولا ترك الأوْلى للأدنى .

وهذا كله أسباب العصمة من الله له ، وتصديق ماوعد بقوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾(١) .

فقد صحّ أن المؤمن الحقيقى لا ينتقل عن الإيمان ، لأنه موهبة له من الله جل وعز ، وعطاء وفضل واختصاص ، وحاشا الحقّ عز وجل أن يرجع فيما وهب ، أو يسترد ما أعطى .

(١) سورة إبراهيم ٢٧

وصورة الإيمان الحقيقى والرسمى فى الظاهر صورة واحدة ، وحقائقها مختلفة .

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص ، فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة ، لأنها ليست من جهة الاكتساب ، لكن من جهة الفضل .

وقول من قال : إن الفانى يردّ إلى أوصافه ، محال : لأن القائل ، إذا أقرّ بأن الله تعالى اختص عبداً واصطنعه لنفسه ، ثم قال : إنه يرده ، فكأنه قال : يختص مالا يختص ، ويصطنع ما لا يصطنع ، وهذا محال .

وجوازه من جهة التربية والحفظ عن الفتنة لا يصح أيضا ؛ لأن الله تعالى لا يحفظ على العبد ما آتاه من جهة السلب ، ولا بأن يردّه إلى الأوضع عن الأرفع ، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء : بأن يردّهم من رتبة النبوة إلى رتبة الولاية أو ما دونها ، وهذا غير جائز .

ولطائف الله تعالى فى عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعدّ ، وقدرته أتم من أن تحصر على فعل دون غيره .

فإن عورض بالذى آتاه آياته ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾[1] ، لم يعترض ، لأن الذى انسلخ لم يكن قط شاهدَ حالا ، ولا وجدَ مقاما ، ولا كانَ مختصا قط ، ولا مصطنعا ؛ بل كان مستدرَجا مخدوعا ممكوراً به .

وإنما أجرى على ظاهره من أعلام المختصين ، وهو فى الحقيقة من المردودين ، وإنما حلّى ظاهرَه بالوظائف الحسنة ، والأوراد الزكية ، وهو القلب محجوب السرّ ، لم يجد قط طعم الخصوص ، ولا ذاق لذة الإيمان ، ولا عرف الله قط من جهة الشهود ، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[2] ، وكما أخبر عن إبليس بقوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٥

(٢) سورة الأعراف ١٧٥

(٣) سورة البقرة : ٣٤ .

Marfat.com

قال الجنيد: إن إبليس لم ينل مشاهدته فى طاعته، وآدم لم يفقد مشاهدته فى معصيته.

وقال أبو سليمان: والله مارجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا إليه ما رجعوا عنه.

والثانى يكون محفوظا فى وظائف الحقّ كما قال الجنيد ـ وقيل له: إن أبا الحسين النورى قائم فى مسجد الشونيزى منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وهو يقول: الله الله، ويصلى الصلوات لأوقاتها، فقال بعض من حضره إنه صاح ـ فقال الجنيد: لا، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدى الله فى مواجيدهم، فإن رُدَّ الفانى إلى الأوصاف لم يُرَدّ إلى أوصاف نفسه، ولكن يُقام مقام البقاء بأوصاف الحقّ.

وليس الفانى بالصَعِق ولا المعتوه، ولا الزائل عنه أوصاف البشرية فيصير ملَكاً أو روحانيا، ولكنه ممن فنى عن شهود حظوظه، كما أخبرنا قبل.

والثانى أحد عينين(١): إما عين لم ينصب إماما ولا قدوة فيجوز أن يكون فناؤه غيبة عن أوصافه، فيُرى بعين العتاهة وزوال العقل، لزوال تمييزه فى مرافق نفسه وطلب حظوظه، وهو على ذلك محفوظ فى وظائف الحق عليه، وقد كان فى الأمة منهم كثير:

منهم هلال الحبشى، عبد كان المغيرة بن شعبة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، نبه عنه النبى صلى الله عليه وسلم.

وأويس القرنى فى أيام عمر بن الخطاب نبه عليه عمر، وعلىّ رضى الله عنهما وخلق كثير.

إلى أن كان عليان المجنون، وسعدون: وغيرهما.

أو يكون إماما يقتدى به ويربط به غيره ممن يسوسه، فأقيم مقام السياسة

---

(١) أحد شخصين أو ذاتين أو كائنين

Marfat.com

والتأديب ، فهذا ينقل إلى حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه .

والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه قبل .

وسئل الجنيد عن الفراسة فقال : هى مصادفة الإصابة .

فقيل له : هى للمتفرس فى وقت المصادفة أو على الأوقات ؟

قال : لا ، بل على الأوقات ، لأنها موهبة ، فهى معه كائنة دائمة .

فأخبر أن المواهب تكون دائمة .

ومن يتتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم ، علم أن قولهم ماحكيناه عنهم ، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات لهم ولا مفردات ، بل يُعْرَف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم .

والله أعلم .

الباب الستون

﴿ قولهم فى حقائق المعرفة ﴾

قال بعض الشيوخ :

المعرفة معرفتان : معرفة حق ، ومعرفة حقيقة .

فمعرفة الحق : إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من الصفات .

والحقيقة : على أن لا سبيل إليها ، لامتناع الصمدية وتحقق الربوبية عن الإحاطة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ ، لأن الصمد هو الذى لا تدرك حقائق نعوته وصفاته .

وقال بعض الكبراء : المعرفة : إحضار السرّ بصنوف الفكر فى مراعاة مواجيد الأذكار على حسب توالى أعلام الكشوف .

ومعناه : أن يشاهد السرُّ من عظمة الله وتعظيم حقّه وإجلال قدره ما تعجز عنه العبارة .

سئل الجنيد عن المعرفة فقال : هى تردّد السرّ بين تعظيم الحقّ عن الإحاطة ، وإجلاله عن الدرك .

وقد سئل عن المعرفة فقال : أن تعلم أن ما تصور فى قلبك فالحقّ بخلافه ، فيا لها حيرة ، لا له حظ من أحد ، ولا لأحد منه حظ ، وإنما وجود يتردّد فى العدم ، لا تتهيأ العبارة عنه ، لأن المخلوق مسبقوق ، والمسبوق غير محيط بالسابق .

معنى : هو وجود يتردّد فى العدم : يعنى صاحب الحال يقول : هو موجود عيانا وشخصا ، وكأنه معدوم صفة ونعتا .

وعن الجنيد أيضا قال : المعرفة : هى شهود الخاطر بعواقب المصير ، وأن لا يتصرّف العارف بسرف ولا تقصير .

ومعناه : أن لا يشهد حاله ، وأن يشهد سابق علم الحقّ فيه ، وأن مصيره إلى ما سبق له منه ، ويكون مصرّفا فى الخدمة والتقصير .

وقال بعضهم : المعرفة : إذا وردت على السرّ ضاق السرّ عن حملها ، كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها .

قال ابن الفرغانى : من عرف الرسم تجبّر ، ومن عرف الوسم تحيّر ، ومن عرف السبق تعطّل ، ومن عرف الحقّ تمكّن ، ومن عرف المتولّى تذلّل .

معناه : من شاهد نفسه قائماً بوظائف الحقّ أعْجِب ، ومن شاهد ما سبق له من الله تحيّر ، لأنه لا يدرى ما علم الحقّ فيه وبماذا جرى القلم به ، ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخّر تعطل عن الطلب ، ومن عرف الله بالقدرة

Marfat.com

عليه والكفاية له تمكّن فلا يضطرب عند المخوفات ولا عند الحاجات ، ومن عرف أن الله متولّى أموره تذلل له فى أحكامه وأقضيته !!!

وقال بعض الكبار : إذا عرّفه الحقّ إياه أوقف المعرفة حيث لا يشهد محبّة ، ولا خوفا ولا رجاء ، ولا فقراً ولا غنى ، لأنها دون الغايات والحقّ وراء النهايات .

معناه : أنه لا يشهد هذه الأحوال ، لأنها أوصافه ، وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقّه الحقّ من ذلك .

أنشدونا لبعض الكبار :

رَاعَيْتَنِي بِالْحِفَاظِ حَتَّى ... حُمِيتُ عَنْ مَرْتَعٍ وَبِيِّ
فَأَنْتَ عِنْدَ الْخِصَامِ عذرى ... وَفِي ظَمَائِي فَأَنْتَ رِيِّي
إِذَا امْتَطَى الْعَارِفُ الْمُعَلَّى ... سِرًّا إِلَى مَنْظَرٍ عَلِيِّ
وَغَاصَ فِي أَبْحُرٍ غِزَارٍ ... تُفِيضُ بِالْخَاطِرِ الْوَحِيِّ
فَضَّ خِتَامَ الْغُيُوبِ عَمَّا ... يُحْيِي فُؤَادَ الشَّجِي الْوَلِيِّ
مَنْ حَارَ فِي دَهْشَةِ التَّلَاقِي ... أَبْصَرْتَهُ مَيِّتاً كَحَيِّ

يعنى : من حيّرته دهشة ما يبدو له مِن اللهمَنْ شاهد تعظيم الله وإجلاله ، أبصرته حيًّا ، كميّت يفنى عن رؤية ما منه ولا يجد له متقدّما ولا متأخراً .

الباب الحادى والستون

﴿ قولهم فى التوحيد ﴾

أركان التوحيد سبعة :

إفراد القدم عن الحدث ، وتنزيه القديم عن إدراك المحدَث له ، وترك التساوى بين النعوت ، وإزالة العلة عن الربوبية ، وإجلال الحقّ عن أن تجرى قدرة الحدث عليه فتلوّنه ، وتنزيهه عن التمييز والتأمل ، وتبرئته عن القياس .

Marfat.com

قال محمد بن موسى الواسطى : جملة التوحيد : أن كل مايتسع به اللسان أو يشير إليه البيان : من تعظيم ، أو تجريد ، أو تفريد . فهو معلول ؛ والحقيقة وراء ذلك .

معناه : أن كل ذلك من أوصافك وصفاتك ، محدثة معلولة مثلك ، وحقيقة الحقّ : هو وصفه له .

وقال بعض الكبراء : التوحيد : إفرادك متوحّداً ، وهو أن لا يُشهدك الحقُّ إياك .

قال فارس : لايصح التوحيد مابقيتْ عليك علاقة من التجريد ، والموحّدبالقول لا يشهد السرّ منفرداً به ، والموحّـد بالحال ذائب بحاله عن الأقوال ، ورؤية الحقّ حال لا يشهده إلا كل ما له ، ولا سبيل إلى توحيده بلا قال ولا حال .

وقال بعضهم : التوحيد : هو الخروج عن جميعك بشرط استيفاء ماعليك ، وأن لا يعود عليك مايقطعك عنه .

معناه : تبذل مجهودك فى أداء حقّ الله،ثم تتبرّأ من رؤية أداء حقّه و يستوفيك التوحيد عن أوصافك ، فلا يعود عليك منها شيء ، فإنه قاطع لك عنه .

قال الشبلى : لا يتحقّق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سرّه وحشةً لظهور الحقّ عليه .

وقال بعضهم : الموحّـد من حال الله بينه و بين الدارين جميعاً ، لأن الحق يحمى حريمه .

قال جل وعز : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ﴾ [(١)] .
فلا نردكم إلى معنى سوانا فى الدنيا والآخرة .

وعلامة الموحّد : أن لا يجرى عليه ذكر إخطار ما لا حقيقة له عند الحقّ ،

---

(١) سورة فصلت ٣١ .

Marfat.com

فالشواهد عن سرّه مصروفة ، والأعواض عن قلبه مطرودة ، فلا شاهد يشهده ، ولا عوض يعبده ، ولا سر يطالعه ، ولا بر يلاحظه ، هو فى حقه عن حقه محجوب ، وفى حظه عن حظه مسلوب،فلا نصيب له فى نصيب ، وهو مأسور فى أوفر النصيب ، والحق أوفر نصيب ،من فاته الحقّ فليس له شىء ، وإن ملك الكون ، ومن وجد الحقّ فله كل شىء ، وإن لم يملك ذرة .

معناه : هو قائم بحقه محجوب عن رؤية قيامه بحقه ، وهو مسلوب عن حظوظه وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها ، ونصيبه من الحقّ وجود الحقّ وهو فيه مأسور وليس له متقدّم ولا متأخر ، وأنشدونا لبعضهم :

مَوَاجِيدُ حَقٍّ أَوْجَدَ الْحَقَّ كُلُّهَا   وَإِنْ عَجَزَتْ عَنْهَا فُهُومُ الْأَكَابِرِ

الباب الثانى والستون

﴿ قولهم فى صفة العارف ﴾

سئل الحسن بن على بن يزدانيار : متى يكون العارف بمشهد الحقّ ؟ قال : إذا بدا الشاهد ، وفنى الشواهد ، وذهب الحواسّ، واضمحل الإخلاص.

معنى بدا الشاهد : يعنى شاهد الحقّ ، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك : من برّه لك ، وإكرامه إياك : بمعرفته ، وتوحيده ، والإيمان به ، تُفنِى رؤية ذلك منك رؤيةَ أفعالك ، وبرّك ، وطاعتك ، فترى كثيرَ مامنك مستغرقا فى قليلِ ما منه ، وإن كان مامنه ليس بقليل ، وما منك ليس بكثير .

وفناءالشواهد : بسقوط رؤية الخلق عنك ، بمعنى الضرّ والنفع ، والذمّ والمدح، وذهاب الحواسّ هو معنى قوله : « فبى ينطق وبى يبصر » الحديث .

ومعنى اضمحل الإخلاص : أن لا يراك مخلصا ، وما خَلَص من أفعالك ، إن خَلَص ، ولن يخلُص أبدا إذا رأيت صفتك ، فإن أوصافك معلولة مثلك .

Marfat.com

سئل ذو النون عن نهاية العارف فقال : إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون .

معناه : أن يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله .

قال بعضهم : أعرَفُ الخلق بالله : أشدّهم تحيرا فيه .

قيل لذى النون : ماأول درجة يرقاها العارف ؟

فقال : التحير ، ثم الافتقار ، ثم الاتصال ، ثم التحير .

الحيرة الأولى فى أفعاله به ونعمه عنده ، فلا يرى شكره يوازى نعمه ، وهو يعلم أنه مطالب بشكرها ، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها ، ولا يرى أفعاله أهلا أن يقابله بها استحقاراً لها ، ويراها واجبة عليه ، لا يجوز له التخلف عنها .

وقيل قام الشبلى يوما يصلى ، فبقى طويلا ، ثم صلى ، فلما انفتل عن صلاته قال: ياويلاه إن صليت جحدت ، وإن لم أصل كفرت .

أى جحدت عظم النعمة ، وكمال الفضل حيث قابلتُ ذلك بفعلى شكراً له مع حقارته .

ثم أنشد :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى أَنَّنِي كَضِفْدَعٍ يَسْكُنُ فِي اْلْيَمِّ
إِنْ هِيَ فَاهَتْ مَلأَتْ فَمَهَا أَوْ سَكَتَتْ مَاتَتْ مِنْ اْلْغَمِّ

والحيرة الأخيرة : أن يتحير فى متاهات التوحيد ، فيضل فهمه ويخنس عقله فى عظم قدرة الله تعالى وهيبته وجلاله .

وقد قيل : دون التوحيد متاهات تضل فيها الأفكار .

سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال : هل للعارف وقت ؟

قال : لا .

فقال : لِمَ ؟

قال : لأن الوقت فرجة تنفس عن الكربة، والمعرفة أمواج تغط ، وترفع وتحط، فالعارف وقته أسود مظلم .

ثم قال :

شرْطُ المَعَارِفِ مَحْوُ الْكُلِّ مِنْكَ إِذَا   بدَا الْمُرِيدُ بِلَحْظٍ غَيْرِ مُطَّلِعِ

قال فارس : العارف : من كان علمه حالة ، وكانت حركاته غلبة عليه .

سئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون الإناء .

يعنى أنه يكون فى كل حال بما هو أولى : فيختلف أحواله ، ولذلك قيل : هو ابن وقته .

سئل ذو النون عن العارف فقال : كان هاهنا فذهب .

يعنى أنك لا تراه فى وقتين بحالة واحدة ، لأن مصرِّفه غيرُه .

وأنشدونا لابن عطاء :

وَلَوْ نَطَقَتْ فِىَّ أَلْسن الدَّهْر خَبرتْ   بِأَنِّىَ فِى ثَوْبِ الصَّبَابَةِ أَرْفُلُ

وَمَا إنْ لها عِلْمٌ بِقَدْرِى وَمَوْضعى   وَمَا ذَاكَ مَوْهُومٌ لأَنِّى أُنَقَّلُ

وقال سهل بن عبد الله : أول مقام فى المعرفة : أن يُعطَى العبدُ يقينا فى سرّه تسكن به جوارحه ، وتوكلا فى جوارحه يسلم به فى دنياه ، وحياة فى قلبه يفوز بها فى عقباه .

قلنا : العارف هو الذى بذل مجهوده فيما لله ، وتحقق معرفته بما مَنّ الله ، وصحّ رجوعه من الأشياء إلى الله .

قال الله تعالى : ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) .

---

(١) سورة المائدة ٨٣ .

Marfat.com

يجوز أن يكون ماعرفوا من الله من برّه وإحسانه : بقصده إليهم ، وإقباله عليهم ، واختصاصه إياهم من بين ذويهم .

كما قال أبىّ بن كعب حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك » .

فقال : يارسول الله أو ذكرتُ هناك ؟

قال : « نعم » .

فبكى أبىّ ، لم ير حالا يقابله بها ، ولا شكراً يوازى نعمه ، ولا ذكراً كما يستحقه ، فانقطع ، فبكى .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة « عرفت فالزم » ، نسبه إلى المعرفة وألزمه إياها ولم يدله على عمل .

سئل ذو النون عن العارف فقال : هو رجل معهم ، باين عنهم .

قال سهل : أهل المعرفة بالله : كأصحاب الأعراف : يعرفون كلا بسيماهم ،أقامهم مقاما أشرف بهم على الدارين ، وعرفهم المُلكين .

أنشدونا لبعضهم :

يَالَهْفَ نفسى عَلَى قَوْمٍ مَضَوْا فَقَضَوْا … لَمْ أَقْضِ مِنْهُم وَ إِنْ طاوَلْتُهُمْ وَطرى
هُمُ الخافِيتُ فِي كِبْرِ الْمُلُوكِ إِذا … أَبْصَرْتَهُمْ قلْتَ : إِضْمارٌ بِلا صُوَر

الباب الثالث والستون

﴿ قولهم فى المريد والمراد ﴾

المريد : مراد فى الحقيقة ، والمراد مريد : لأن المريد لله تعالى لايريد إلا بإراده من الله عز وجل تقدّمت له .

Marfat.com

قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) وقال : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (٣)

فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له ، إذ علة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد ، فجعل المريدَ مراداً والمرادَ مريداً ، غير أن المريد هو الذى سبق اجتهادُه كشوفَه ، والمرادُ هو الذى سبق كشوفُه اجتهادَه .

فالمريد : هو الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤) ، وهو الذى يريده الله تعالى ، فيقبل بقلبه ، ويحدث فيه لطفا يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له ، ثم يكاشفه الأحوال .

كما قال حارثة : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأظمأت نهارى وأسهرت ليلى ، ثم قال : وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً .

فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا .

والمراد : هو الذى يجذبه الحقّ جذبة القدرة ، ويكاشفه بالأحوال ، فيُثير قوةَ الشهود منه اجتهاداً فيه وإقبالا عليه ، وتحملا لأثقاله .

كسحرة فرعون : لما كوشفوا بالحال فى الوقت ، سهل عليهم تحمّل ماتوعّدهم به فرعون فقالوا : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ (٥) .

وكما فعل بعمر بن الخطاب رضى الله عنه : أقبل يريد قتل رسول الله ، فأسَرَه الحقّ فى سبيله .

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) سورة المائدة ١١٩ .
(٣) سورة التوبة ١١٧ .
(٤) سورة العنكبوت ٦٩ .
(٥) سورة طه ٧٢ .

Marfat.com

وكقصة إبراهيم بن أدهم : خرج يطاب الصيد متلهيًا ، فنودى : مالهذا خُلقت، ولا بهذا أمرت ، مرّتين ، ونودى فى الثالثة من قربوس سرجه فقال : والله لاعصيت الله بعد يومى هذا ماعصمنى ربّى .

هذه جذبة القدرة : كوشفوا بالأحوال ، فأُسقِطُوا عن النفوس والأموال

أنشدنى الفقيه أبو عبد الله البرقى لنفسه :

مُرِيدٌ صَفَا مِنْهُ سِرّ ٱلْفُؤاد   فَهَامَ بِهِ ٱلسِّرُ فِى كُلِّ وَاد
فَفِى أىّ وَادٍ سَعَى لَمْ يَجِدْ   لَهُ مَلْجَأً غَيْرَ مَوْلَى ٱلْعبَاد
صَفَا بِٱلْوَفاءِ وَفَى بالصَفا   وَنُورُ ٱلْصَفاءِ سِرَاجِ ٱلْفُؤاد
أرَادَ وَمَا كَانَ حَتَّى أُرِيد   فَطوبَى لَهُ مِنْ مُرِيدٍ مُرَاد

الباب الرابع والستون

﴿ قولهم فى المجاهدات والمعاملات ﴾

قال بعض الكبراء : التعبد : إتيان ماوظّف اللهُ على شرط الواجب .

وشرط الواجب : الإتيان به على غير مطالبة عوض ، وإن شهدته فضلا ، بل يستوفيك عن رؤية الفضل .

والعوض : مالله عليك فى العمل فى قوله ﴿ إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفسَهمُ وأَموَالَهُمْ ﴾ (١) ، قال : ليعبدوه بالرق لابالطمع .

قيل لأبى بكر الواسطى : بأى شاهدٍ ينبغى أن يكون العبد فى حركات مايسعى ؟

قال : بشاهد الفناء عن حركاته التى هى كائنة بغيره .

قال أبو عبدالله النباجى : استحلاء الطاعة ثمرة الوحشة عن الحقّ جل وعز ،

---

(١) سورة التوبة ١١١

إذ لايواصل الحقّ بها ولايفاصل ، ولايعتمد عليها اعتماد معول ، ولايتركها ترك معاند ، بل يقيم وظائف الحقّ رقا وعبودية ، ويكون الاعتماد على مافى الأزل .

يريد باستحلاء الطاعة رؤيتها من نفسك ، دون مشاهدة فضل الله عليك فى التوفيق فى قول الله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (١) قال أكبر من أن تبلغه أفهامكم ، وتحويه عقولكم ، ويجرى على ألسنتكم .

وحقيقة الذكر هو نسيان ماسواه فيه لقوله عز وجل ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (٢) وفى قوله تعالى ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (٣) أى الخالية عن ذكر الله ، لتعلموا أنكم بفضله نلتم لابأعمالكم .

قال أبو بكر القحطبى : نفوس الموحدين : نفوس سئمت من جميع ماظهر من نعوتها وصفاتها ، واستقبحت كل باد بدا منها ، وانقطعت عن الشواهد ، والعوائد والفوائد وعجزت عن إظهار الدعوى بين يديه ، لما سمعت قوله عز وجل : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (٤) .

الشواهد : الخلق ، والعوائد : الأعواض ، والفوائد : الأعراض .

قال أبوبكر الواسطى : معنى التكبير فى الصلاة : كأنك تقول : جللت عن أن تواصل بها ، أو تفاصل بتركها ، إذ الفصل والوصل ليس بحركات ، بل هو بما سبق فى الأزل .

قال الجنيد : لايكوننّ همك فى صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لاوسيلة إليه إلا به .

قال ابن عطاء : لايكوننّ همك فى صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها .

(١) سورة العنكبوت ٤٥

(٢) سورة الكهف ٢٥ .

(٣) سورة الحاقة ٢٤

(٤) سورة الكهف ١١٠

Marfat.com

وقال غيره : معنى الصلاة : التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق .

والعلائق : ماسوى الله ، والحقائق : مالله ومن الله .

وقال آخر : الصلاة وصل .

قال سمعت فارسا يقول : معنى الصوم : الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحقّ عز وجل ، لقوله تعالى فى قصة مريم ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً ﴾ (١) .

قال : لغيبتى عنهم برؤية الحقّ ، فلا أستجيز فى صومى أن يشغلنى عنه شاغل أو يقطعنى عنه قاطع .

ويدلّ على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الصومُ جُنَّة » ، أى : حجاب عما دون الله فى قوله تعالى (٢) : الصوم لى وأنا أجزى به .

قال بعض الكبار : أى أنا الجزاء به .

وقال أبو الحسن بن أبى ذر : أى معرفتى هى الجزاء له به ، قال : وحسبه ذلك جزاء ، فما يبلغها شىء ولا يدانيها .

سمعت أبا الحسن الحسنى الهمدانى يقول : معنى قوله : الصوم لى ، كى ينقطع الأطماع عنه ، طمع العدو أن يفسده : لأن مالله فلا يطمع فيه العدو ، وطمع النفس أن تعجب به : فإنها إنما تعجب بما لها ، وطمع الخصوم فى الآخرة : فإنهم يأخذون مالمعبد دون مالله . هذا معنى مافهمت من قوله .

قال بعضهم : جهد البلاء النظر إلى النفوس ، والاعتماد على الأفعال : فإن وكل إليها فهو درك الشقاء ، وفى درك الشناء شماتة الأعداء .

أنشدونا للنورى :

---

(٦) سورة مريم ٢٦

(٧) فى حديث قدسى

أقولُ أكادُ الْيومَ أنْ أبْلغَ الْمدَى ... فَيَبْعُدُ عَنّى ما أقولُ أكادُ
فما لِى جِهادٌ غَيْرُ أنّى مُقصرٌ ... وَعجزى عَنْ طولِ الْجهادِ جِهادُ
وَإنّ رِجَائِى عَوْدَةٌ مِنْكَ بالرّضا ... وَإلاّ فحظّى فِى الْمعادِ بِعادُ

وأنشدونا لغيره :

هَبْنى أرَاعِيكَ بالأذكار مُلْتَمِساً ... ما يَبتغيهُ ذوُو التّلوينِ بالغيَرِ
فكيف لِى بشهودٍ مِنكَ يَحْملنى ... عنْ فِتنةِ الوقتِ بَلْ عَنْ حَجبْةِ الأثَر

يقول : إن طالعتُ فى أفعالى ومجاهداتى ثوابك عليها ، وهو الذى يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات : فكيف أطالع شهود ما يحملنى عن خوف العاقبة من تغيير الأحوال والأوقات ، وعن النظر إلى حركاتى ومجاهداتى ، وهى التى تحجبنى عنك ؟

الباب الخامس والستون

﴿ حالهم فى الكلام على الناس ﴾

قيل للنورى : متى يستحقّ الإنسان الكلام (١) على الناس ؟

قال : إذا فهم عن الله جل جلاله صلح أن يفهم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عاماً فى بلاده وعلى عباده .

قال السرى السقطى : إنى أذكر مجىء الناس إلىّ ، فأقول : اللهم هب لهم من العلم مايشغلهم عنى ، فإنى لاأحبّ مجيئهم إلىّ .

قال سهل بن عبدالله : أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله ، والناس يتوهمون أنى أكلمهم .

---

(١) أى تدريس العلم للناس ودعوتهم إلى الله

Marfat.com

قال الجنيد للشبلى : نحن حبّرنا هذا العلم تحبيراً ، ثم خبأناه فى السراديب ، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ .

فقال : أنا أقول ، وأنا أسمع ، فهل فى الدارين غيرى .

وقال بعض الكبار للجنيد ، وهو يتكلم على الناس : ياأبا القاسم إن الله لايرضى عن العالم بالعلم حتى يجده فى العلم فإن كنت فى العلم فالزم مكانك ، وإلا فانزل .

فقام الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرين ، ثم خرج فقال : لولا أنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « فى آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم » ماخرجت إليكم .

وقال الجنيد : ماتكلمت على الناس حتى أشار إلىّ وعلىّ ثلاثون من البدلاء : إنك تصلح أن تدعو إلى الله عز وجل .

وقيل لبعض الكبار : لم لاتتكلم ؟

فقال : هذا علم قد أدبر وتولى ، والمقبل على المدبر أدْبَر من المدبرُ .

قال أبومنصور البنجخينى لأبى القاسم الحكيم : بأى نية أتكلم على الناس ؟

فقال : لاأعلم للمعصية نية غير الترك .

واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازى ، أباحفص الحداد ، وكان تلميذه، فى الكلام على الناس ، فقال له أبوحفص : ومايدعوك إليه ؟

فقال أبو عثمان : الشفقة عليهم ، والنصيحة لهم .

فقال : ومابلغ من شفقتك عليهم .

فقال : لوعلمت أن الله يعذبنى بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة ، وجدت من قلبى الرضا به .

فأذن له ، وشهد أبو حفص مجلسه ، فلما قضى أبو عثمان كلامه ، قام سائل ، فسبق أبو عثمان ، فأعطاه ثوبا كان عليه .

فقال أبو حفص ، يا كذاب ، إياك أن تتكلم على الناس وفيك هذا الشيء .

فقال أبو عثمان : وماذاك يا أستاذ ؟

قال : أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم على نفسك بثواب السبق ، ثم تتلوهم .

سمعت فارسا يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : كنا عند الجنيد ، إذمرّ به النورى ، فسلم ، فقال له الجنيد وعليك السلام يا أمير القلوب ، تكلم .

فقال النورى : يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك على المنابر ونصحتهم فرمونى فى المزابل

فقال الجنيد : ما رأيت قلبى أحزن منه فى ذلك الوقت .

ثم خرج علينا فى الجمعة الأخرى فقال : إذا رأيتم الصوفى يتكلم على الناس فاعلموا أنه فارغ .

وقال ابن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [١] ، قال على مقدار فهومهم ومبلغ عقولهم .

وقال غيره فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ [٢] ، أى لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم ، يدلّ عليه قوله : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [٣] . ولم يقل بلغ ما تعرّفنا به إليك .

رأى الحسين المغازلى رويم بن محمد ، وهو يتكلم على الناس فى الفقر ، فوقف عليه . وقال :

---

(١) سورة النساء ٦٣
(٢) سورة الحاقة ٤٤
(٣) سورة المائدة ٦٧

وَمَا تَصْنَعُ بالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالَا
أَلَا ابْتَعْتَ بِمَا حَلَّيـ ت هَذا السيْفِ خُلْخَالَا

عبر بعبارته عن حال ليس هو فيها :

قال بعض الكبار : من تكلم عن غير معناه فقد تحمَّر فى دعواه ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾[١] .

الباب السادس والستون

﴿ فى توقى القوم ومجاهداتهم ﴾

ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار ، فلم يأخذ منه شيئا ، وقال : إنه كان يرى القدَر .

قال أبو عثمان : كنا فى دار أبى بكر بن أبى حنيفة مع أبى حفص ، فجرى ذكر صديق غائب عنا .

فقال أبو حفص : لو كان عندنا كاغد كتبنا إليه .

فقلت : هاهنا كاغد ، وكان أبو بكر قد خرج إلى السوق .

فقال أبو حفص : لعل أبا بكر قد مات ، ولم نعلم ، وصار الكاغد للورثة فترك الكتاب .

وقال أبو عثمان : كنت عند أبى حفص ، و بين يديه ز بيب . فأخذت ز بيبة ووضعتها فى فمى ، فأخذ بحلقى وقال : ياخائن ، تأكل ز بيبتى ؟ فقلت لثقتى بزهادتك فى الدنيا وعلمى بإيثارك أخذت الز بيبة،فقال : ياجاهل تثق بقلب لا يملكه صاحبه؟!

سمعت كثيراً من مشايخنا يقولون : كان الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث :

إذا حجّ عن غيره بمال ، و إذا أتى خراسان ، و إذا دخل اليمن .

---

(١) سورة الجمعة ٥

فقالوا : من أتى خراسان : لم يأته إلا للرفق وليس بها مباح ، فيطيب مطعمه .

وأما اليمن : ففيه طرق إلى الفسق كثيرة .

وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام على جنبه ، وكان يقوم الليل ، وإذا غلبته عينه قعد ، ووضع جبينه على ركبتيه فيغفو غفوة .

فقيل له : ارفق بنفسك .

فقال : والله مارفق الرفيق بى رفقا فرحت به ، أما سمعت سيد المرسلين يقول : « أشدّ الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

قالوا : إن أبا عمرو الزجاجى أقام بمكة سنين كثيرة لم يحدث فى الحرم ، كان يخرج من الحرم للحدث ، ثم يعود إليه وهو على الطهارة .

قال سمعت فارسا يقول : كان أبو عبد الله المعروف بشكثل لا يكلم الناس ، وكان يأوى إلى الخرابات فى سواد الكوفة ، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات ، فلقيته يوما فتعلقت به ، وقلت : سألتك بالله ألا أخبرتنى : ما الذى منعك عن الكلام ؟

فقال : ياهذا ، الكون توهم فى الحقيقة ، ولا تصحّ العبارة عما لا حقيقة له ! والحق تقصر عنه الأقوال دونه ! فما وجه الكلام ؟ وتركنى ومرّ .

قال : وسمعته يقول : سمعت الحسين المغازلى يقول : رأيت عبد الله القشاع ليلة قائما على شط دجلة ، وهو يقول : ياسيدى أنا عطشان ، يا سيدى أنا عطشان ، حتى أصبح ، فلما أصبح قال : ياويلتى ، تبيح لى شيئا وتحول بينى و بينه ، وتحظر علىّ شيئا وتخلى بينى و بينه ، فأيش أصنع ؟ ورجع ولم يشرب منه .

وسمعته يقول : سمعت بعض الفقراء قال : كنت سنة الهبير مع الناس ، فانفلتُ ثم رجعتُ ، فكنتُ أطوف بين الجرحى ، قال : فرأيت أبا محمد الجريرى ، وكان قد نيف على المائة .

Marfat.com

فقلت : ياشيخ ، ألا تدعو فيكشف ما ترى ؟

قال : قد فعلتُ ، قال : إنى أفعل ما أشاء ، فأعدت عليه ، فقال يا أخى ، ليس هذا وقتَ الدعاء ، هذا وقتُ الرضا والتسليم .

فقلت : ألك حاجة .

فقال : أنا عطشان .

فجئته بماء فأخذه وأراد أن يشرب ، فنظر إلىّ فقال : هؤلاء عطاش وأنا أشرب هذا شَرَه ، فردّه على ، ومات من ساعته !!

قال : وسمعته يقول سمعت بعض أصحاب الجريرى يقول : مكثتُ عشرين سنة لا يخطر لى ذكر الطعام حتى يحضر ، ومكثت عشرين سنة أصلى الفجر على طهور العشاء الآخرة ، ومكثت عشرين سنة لا أعقد مع الله عقداً : مخافة أن يكذبنى على لسانى ، ومكثت عشرين سنة لا يسمع لسانى إلا من قلبى ، ثم حالت الحال ، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبى إلا من لسانى .

معنى قوله : لا يسمع لسانى إلا من قلبى أى لا أقول إلا من حقيقة ما أنا عليه، وقوله لا يسمع قلبى إلا من لسانى أى حفظ على لسانى ، لما قال : « فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق » .

قال : وسمعت بعض مشائخنا يقول : سمعت محمد بن سعدان يقول : خدمت أبا المغيث عشرين سنة ، فما رأيته أسف على شىء فاته ، أو طلب شيئا فقده .

وقيل : إن أبا السوداء وقف ستين وقفة .

وجعفر بن محمد الخلدى وقف خمسين وقفة .

وكان بعض المشايخ ، وأكثر ظنى أنه أبو حمزة الخراسانى ، حجّ عشر حجج عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحجّ عن العشرة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

Marfat.com

عشر حجج حج عن نفسه حجة : يتوسل بتلك الحجج إلى الله فى قبول حجته .

الباب السابع و الستون

﴿ فى لطائف الله للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف ﴾

قال أبو سعيد الخراز : بينا أنا عشيةَ عرفة ، قطعنى قرب الله عز وجل عن سؤال الله . ثم نازعتنى نفسى بأن أسأل الله تعالى ، فسمعت هاتفا يقول : أَبَعدَ وجود الله تسأل الله غيرَ الله(١)

قال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين ، فكنت أمشى ، فوقعت فى بئر ، فنازعتنى نفسى بأن أستغيث ، فقلت : لا والله لا أستغيث ، فما استَتَممتُ هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال حتى نطمّ رأس هذا البئر من الطريق ، فأتوا بقصب وبارية ، وهممتُ أن أصيح ، ثم قلت : يامن هو أقرب إلىّ منهما وسكت حتى طموا ومضوا ، فإذا أنا بشىء قد دلى برجليه فى البئر ، وهو يقول : تعلقْ بى ، فتعلقتُ به ، فإذا هو سبع ، وإذا هاتف يهتف بى ، ويقول لى : يا أبا حمزة ، هذا حسن ، نجيناك من التلف فى البئر بالسبع !!

قال : سمعت بعض أصحابنا يقول : قال أبو الوليد السقّاء قدّم إلىّ أصحابنا يوما لبنا ، فقلت هذا يضرّنى فلما كان يومٌ من الأيام دعوت الله تعالى ، فقلت : اللهم اغفر لى ، فإنك تعلم أنى ما أشركت بك طرفة عين ، فسمعتُ هاتفا يهتف بى ويقول : ولا ليلة اللبن !!

قال أبو سعيد الخراز : كنت فى البادية ، فنالنى جوع شديد ، فطالبتنى نفسى بأن أسأل الله طعاما ، فقلت : ليس هذا من فعل المتوكلين ، فطالبتنى نفسى بأن أسأل الله صبراً ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول :

(١) من ذلك قوله تعالى : « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وَيَزْعَمُ أنَّه مِنَّا قَرِيبٌ وَأنا لا نُضَيِّع مَنْ أتَانَا
وَيَسْأَلُنا الْقُوى عَجْزا وَضَعْفا كأنَّا لَا نرَاه وَلَا يرَانَا ! !

ويشهد لصحة حال الهاتف : ماحدثنا محمد بن محمد بن محمود ، قال : حا[1] نصر بن زكريا ، حا عمار بن الحسن ، حا سلمة بن الفضل ، حا محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة . قالت : « لما أرادوا غسل النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه ، فقالوا : والله ماندرى أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ، قالت : فلما اختلفوا ، ألقى الله عليهم السِّنة ، حتى مابقى منهم أحد إلا وذقنه فى صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت ، لايدرون من هو : أن اغسلوا النبى وعليه ثيابه » .

الباب الثامن والستون

﴿ تنبيهه إياهم بالفراسات ﴾

قال أبو العباس بن المهتدى : كنت فى البادية فرأيت رجلا يمشى بين يدىّ حافى القدم ، حاسر الرأس ، ليس معه ركوة ، فقلت فى نفسى : كيف يصلى هـذا الرجل ؟ مالهـذا طهارة ولا صلاة ! قال فالتفت إلىّ فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَافِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾[2] قال : فسقطتُ مغشيا علىّ ، قال : فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤية التى نظرت بها إليه ، فبينا أنا أمشى فى بعض الطريق ، فإذا هو بين يدى ، فلما رأيته : هبته وتوقفت ، فالتفت إلىّ ثم قرأ : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوعَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾[3] قال : ثم غاب فما رأيته بعد ذلك ، أو كما قال .

سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : قال لى أبو الحسن المزين : دخلت البادية

---

(١) رمز عن « حدثنا » .
(٢) سورة البقرة ٢٣٥ .
(٣) سورة الشورى ٢٥ .

Marfat.com

وحدى على التجريد ، فلما بلغت العمق ، قعدت على شفير البركة ، فحدثتنى نفسى بقطعها البادية على التجريد ودخلها شىء من العجب ، فإذا أنا بالكتانى — أو غيره الشك منى — من وراء البركة ، فنادانى : ياحجام إلى كم تحدث نفسك بالأباطيل ؟ !

ويروى أنه قال له : ياحجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك بالأباطيل .

وقال ذو النون: رأيت فتى عليه أطمار رثة فتقذرته نفسى وشهد له قلبى بالولاية، فبقيتُ بين نفسى وقلبى أتفكر ، فاطلع الفتى على سرّى فنظر إلىّ فقال : ياذاالنون لاتبصرنى لكى ترى خِلَقى ، وإنما الدر داخل الصدف . ثم ولى وهو يقول :

تِهْتُ عَلَى أَهْلِ ذا الزَّمَانِ فَمَا أَرْفَعُ مِنْهُمْ لِوَاحِدٍ رَأسا
ذَاكَ لِأَنِّى فتى أخو فِطَنٍ أَعْرِفُ نَفْسى وَأَعْرِفُ الناسَا
فَصِرْتُ حُرًّا مُملكاً مَلكاً مُدَرَّعاً بالْقُنوعِ لِبَاسا

ويشهد لصحة الفراسة ماحدثنا أحمد بن على قال : حا ثواب بن يزيد الموصلى ، حا إبراهيم بن الهيثم البلدى ، حا أبو صالح كاتب الليث ، حا معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد ، عن أبى أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

الباب التاسع والستون

﴿ تنبيهه إياهم بالخواطر ﴾

قال أبو بكر بن مجاهد المقرئ : قدم أبو عمرو بن العلاء يوما ليصلى بالناس وما كان يؤم فيقدم اضطراراً ، فلما تقدّم قال للناس استووا ، فغشى عليه ، فلم يفق إلا بالغد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : وقت ماقلت لكم : استووا ، وقع فى قلبى خاطر من الله تعالى كأنه يقول لى : ياعبدى هل استويت لى قط طرفة عين حتى تقول لخلق استووا ؟

Marfat.com

قال الجند : مرضت مرضة فسألت الله أن يعافينى ، فقال لى فى سرّى لاتدخل بينى و بين نفسك .

قال سمعت بعض أصحابنا يقول : سمعت محمد بن سعدان ، يقول : سمعت بعض الكبراء يقول : ربما أغفو غفوة فأنادى أتنام عنى ؟ إن نمت عنى لأضربنك بالسياط .

الباب السبعون

﴿ تنبيهه إياهم فى الرؤيا ولطائفها ﴾

قال : سمعت أبا بكر محمد بن غالب يقول :سمعت محمد بن خفيف يقول : سمعت أبا بكر محمد بن على الكتانى يقول : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عادتى – فكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم كل ليلة اثنين وخميس ، فيسأله مسائل ، فيجيبه عنها – قال : « فرأيته قد أقبل علىّ ، ومعه أربعة نفر

فقال لى : ياأبا بكر أتعرف من هذا ؟

قلت : نعم ، هو أبو بكر .

ثم قال لى : أتعرف هذا ؟

قلت : نعم ، هو عمر .

ثم قال أتعرف هذا ؟

قلت : نعم ، هو عثمان .

ثم قال لى : أتعرف هذا الرابع ؟

فتوقفت ولم أجب ، فأعاد علىّ ثانيا ، فتوقفت ، فأعاد على ثالثا ، فتوقفت ، وكان فى قلبى منه غيرة ، قال : فجمع كفه وأشار بها إلىّ ، ثم بسطها ، وضرب بها

Marfat.com

صدرى ، وقال لى : ياأبا بكر قل : هذا علىّ بن أبى طالب .

فقلت : يارسول الله ، هذا على بن أبى طالب ؟ ! قال : فآخى عليه السلام بينى و بين على رضى الله عنه ، قال : ثم أخذ على رضى الله عنه بيدى . وقال لى : ياأبا بكر ، قم حتى تخرج إلى الصفا ، فخرجت معه إلى الصفا ، وكنت نائما فى حجرتى ، فاستيقظت : فإذا أنا على الصفا .

قال سمعت منصور بن عبد الله قال : سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول : دخلت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم و بى شىء من الفاقة ، فتقدّمت إلى القبر، وسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ضجيعيه : أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم قلت : يارسول الله بى فاقة ، وأنا ضيفك الليلة ، ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر فإذا أنا بالنبى عليه السلام جاءنى ودفع إلىّ رغيفا ، فأكلت نصفه ، فانتبهت ، فإذا فى يدى نصف الرغيف .

قال يوسف بن الحسين : كان عندنا شاب من أهل الإرادة ، أقبل على الحديث وقصر فى قراءة القرآن ، فأُتِى فى منامه ، فقيل له : إن لم تكن بى جافيا فلم هجرت كتابى ، أما تدبرت مافيه من لطيف خطابى ؟ .

يشهد لصحة الرؤيا ماحدثنا على بن الحسن بن أحمد السرخسى إمام جامعها ، حا أبو الوليد محمد بن إدريس السلمى ، حا سويد ، حا محمد بن عمرو بن صالح بن مسعود الكلاعى ، عن الحسن البصرى قال : دخلت مسجد البصرة ، فإذا رهط من أصحابنا جلوس ، فجلست إليهم ، فإذا هم يذكرون رجلا يغتابونه ، فنهيتهم عن ذكره ، وحدثتهم بأحاديث فى الغيبة بلغتنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عيسى بن مريم عليه السلام ، فأمسك القوم ، وأخذوا فى حديث آخر ، ثم عرض ذكر ذلك الرجل ، فتناولوه ، وتناولتُه معهم ، فانصرفوا إلى رحالهم وانصرفتُ إلى رحلى ، فنمت ،فأتانى آت فى منامى أسود ، فى يده طبق من خلاف

Marfat.com

وعليه قطعة من لحم خنزير ، فقال لى : كل ، قلت : لا آكل ، هـذا لحم خنزير ، قال : كل ، قلت : لا آكل ، هذا لحم خنزير ، قال : كل ، قلت لا آكل ، هـذا لحم خنزير ، هذا حرام ، قال لتأكلنه ، فأبيت عليـه ، ففك لحيّ ووضعها فى فمى ، فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدى ، فجعلت أخاف أن ألقيها وأكره أن أسترطها ، فاستيقظت على تلك الحال ، فوالله لقد لبثت ثلاثين يوما وثلاثين ليلة ماينفعنى طعام أطعمه ولا شراب أشربه إلا وجدت طعمها فى فمى وريحها فى منخرى ! !

الباب الحادى والسبعون

﴿ لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم ﴾

دخل جماعة على رابعة : يعودونها من شكوى ، فقالوا . ماحالك ؟

قالت :والله ماأعرف لعلتى سببا ، غيرأنى عرضت علىّ الجنة ، فملت بقلبى إليها. فأحسب أن مولاى غار علىّ ، فعاتبنى ، فله العتبى

قال الجنيد : دخلت على سرى السقطى فرأيت عنده خزفَ كوزٍ مكسور . فقلت ماهذا ؟

قال جاءتنى الصبية البارحة بكوز فيه ماء، فقالت لى : ياأبت ، هـذا الكوز معلق ههنا ، فإذا برد ، فاشربه ؛ فإنها ليلة غمة ، فغلبتنى عينى ، فرأيت جارية من أحسن الجوارى دخلت على ، فقلت لمن أنت ؟ قالت : لمن لايشرب المـاء المبرَّد فى الكيزان ، وضربتْ بيدها إلى الكوز : فانكسر ، وهو الذى ترى (١) . فمازال الخزف مكانه لم يحركه حتى ستره الغبار !!!

قال المزّين : أقمت فى بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئاً ، فأضافنى

---

(١) : ومن ذلك قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

Marfat.com

رجل فى منزله ، فقدم إلىّ تمراً وخبزاً ، فلم أقدر على أكله ، فلما كان الليل اشتهيته ، فأخذت نواة أعالج بها فتح فمى ، فضربت النواة سنى ، فقالت صبية من البيت : ياأبى كم يأكل ضيفنا الليلة ! فقلت : ياسيدى جوع سبعة أيام ، ثم تنغص علىّ ، وعزتك لاذقته !!

قال أحمد بن السمين : كنت أمشى فى طريق مكة ، فإذا أنا برجل يصيح : أغثنى يارجل الله ، الله !

قلت : مالك ، مالك ؟

قال : خذ منى هـذه الدراهم ، فإنى ماأقدر أن أذكر الله وهى معى ، فأخذتها منه ، فصاح : لبيك اللهم لبيك ، وكانت أربعة عشر درهما (١) .

قيل لأبى الخير الأقطع : ما كان سبب قطع يدك ؟ قال : كنت فى جبل لكام — أولبنان — ومعى رفيق لى ، فجاء رجل من بعض السلاطين ومعه دنانير يفرّقها ، فناولنى منها ديناراً ، فمددت إليه ظهر كفى ، فوضع عليها ديناراً ، نقلبته يدى فى حجر رفيقى وقمت ، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصا ، فأخذونى فقطعوا يدى .

يشهد لهـذا المعنى ماحدثنا به أحمد بن حيان التميمى ، قال : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ، حاقتيبة بن سعيد ، حايعقوب بن عبد الرحمن الاسكندرانى ، عن عمرو بن أبى عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ليحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم » .

---

(١) : ومن ذلك حديث معناه : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم بلباس له أعلام فتهيأ للصلاة أوصلى فيه ، ثم طرحه وقال : شغلتنى أعلامها آتى بأنبجانية فلان .. » .

الباب الثانى والسبعون

﴿ لطائفه بهم فيما يحمّلهم ﴾

سمعت فارسا يقول: سمعت أبا الحسن العلوى تلميذ إبراهيم الخواص يقول: رأيت الخواص بالدينور فى جامعها، وهو جالس فى وسطه، والثلج يقع عليه، فأدركنى الإشفاق عليه، فقلت له: لو تحوّلتَ إلى الكِنّ؟

فقال: لا، ثم أنشأ يقول.

لَقَدْ وَضَحَ الْطريقُ إلَيْكَ قَصْداً فَمَا أَحَدٌ أَرَادَكَ يستدِلُّ
فإنْ وَرَدَ الشتاء فَفيكَ صَيف وَإنْ وَرَدَ المصيفُ فَفيكَ ظِلُّ

ثم قال لى: هاتِ يدك، فناولته يدى، فأدخلها تحت خرقته، فإذا هو يتصبب عرقا!!

قال: سمعت أباالحسن الفارسى يقول: كنت فى بعض الوادى، فأصابنى عطش شديد حتى تعبت عن المشى من الضعف، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت، قال: فقعدت وأنا أنتظر تقطر عينى إذ سمعت حسا، فنظرت، فإذا هى حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق، وقد قصدتنى مسرعة، فهالتنى، فقمت فزعا، ودخلتنى قوة من الفزع، فجعلت أمشى على ضعف وهى خلفى تنفث، فلم أزل أمشى وهى خلفى حتى بلغت ماء وسكن الحسّ، فالتفتّ، فلم أرها، وشربت الماء، فنجوت. قال: وربما يكون بى غم أوعلة، فأراها فى النوم، فتكون بشارة لى بفرج غمى وزوال علتى.

الباب الثالث والسبعون

﴿ لطائفه بهم فى الموت وبعده ﴾

قال أبو الحسن المعروف بالقزاز: كنا فى الفجّ، فأتانا شاب حسن الوجه عليه

Marfat.com

طمران ، فسلم علينا ، وقال : ههنا موضع أموت فيه نظيف ؟ قال : فتعجبنا ، وقلنا له : نعم ! فدللناه على عين بالقرب منا ، فذهب ، فتوضأ ، وصلى ماشاء الله ، ثم انتظرناه ساعة ، فلم يجئنا ، فأتيناه ، فإذا هو ميت .

قال أصحاب سهل بن عبدالله : كان سهل على التخت يغسل ، وسبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها .

قال أبو عمرو الاصطخرى : رأيت أباتراب النخشبى فى البادية قائما ، ميتا ، لايمسكه شىء .

قال إبراهيم بن شيبان وافانى بعض المريدين ، فاعتلّ عندى أياما ، فمات ، فلما أن أدخل فى قبره ، أردت أن أكشف خده وأضعه على التراب تذللا لعلّ الله يرحمه فتبسم فى وجهى ، وقال لى : تُذللنى بين يدى من يدللنى ؟ قال : قلت : لاياحبيبى ، أحياة بعد الموت ؟

فأجاب : أماعلمت أن أحبّاءه لايموتون ، ولكن ينقلون من دار إلى دار .

وقال إبراهيم بن شيبان أيضا : كان عندى فى القرية شابّ من أهلها متنسكا ملازما للمسجد ، وكنت مشغوفا به ، فاعتلّ فأتيت فى بعض الجمعات البلد للصلاة ، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخوانى بقيــة يومى وليلتى ، فوقع علىّ الانزعاج بعد العصر ، فأتيت القرية بعد العتمة ، فسألت عن الفتى ، قالوا : نظنه متوجعا ، فأتيته ، وسلمت عليه ، وصافحته ، فخرجت روحه مع المصافحة ، فتوليت غسله ، فغلطت فى صبّ الماء : أردت أن أصبّ على يمينه صببت على يساره ويده فى يدى ، فانتزع يده من يدى حتى ذهب ما كان عليه من السدر ، فغشى على من كان معى ، ثم فتح عينيه فىّ ففزعت ، وصليت عليه ، ودخلت القبر أواريه ، وكشفت عن وجهه ، ففتح عينيه وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه ، فسوينا عليه ، وحثينا عليه التراب .

يشهد لصحة ذلك ماحدثنا أبو الحسن على بن إسماعيل الفارسى ، حانصر

ابن أحمد البغدادى ، حا الوليد بن شجاع السكونى ، عن خالد ، عن نافع الأشعرى ، عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش : أن الربيع بن خراش ، كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أفى الجنة هو أم فى النار ، فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات ، فيما يرون ، فأغمضوه ، وسجوه ، و بعثوا إلى قبره ليحفر ، و بعثوا إلى كفنه ، فأتى به .

فقال ربعى بن خراش : رحم الله أخى كان أقومنا فى الليل الطويل ، وأصومنا فى اليوم الحار ، قال : فإنهم لجلوس حوله ، إذ طرح الثوب عن وجهه ، فاستقبلهم وهو يضحك .

فقال له أخوه ربعى : ياأخى أبعد الموت حياة ؟ .

قال نعم ، إنى لقيت ربى ، و إنه تلقانى بروْح وريحان ورب غير غضبان ، و إنه قد كسانى سندساً وحريراً ، ألا و إنى وجدت الأمر أيسر مما ترون ، فلا تغتروا ، فإن خليلى محمداً صلى الله عليه وسلم ، ينتظرنى ليصلى علىّ ، الوَحَى الوحى . ثم خرجت نفسه فى آخر ذلك ، كأنها حصاة قذفت فى ماء ، فبلغ ذلك عائشة أمّ المؤمنين ، فقالت : أخو بنى عبس ! رحمه الله ، سمعت رسول الله يقول : « يتكلم رجل من أمتى بعد الموت من خير التابعين » .

الباب الرابع والسبعون

﴿ من لطائف ماجرى عليهم ﴾

قال أبو بكر القحطبى . كنت فى مجلس سمنون ، فوقف عليه رجل ، فسأله عن المحبة ، فقال : لاأعرف اليوم من أتكلم عليه يعلم هذه المسألة ، فسقط على رأسه طائر ، فوقع على ركبته ، فقال : إن كان فهذا ، ثم جعل يقول ـ و يشير إلى الطير ـ

Marfat.com

بلغ من أحوال القوم كذا وكذا، فشاهدوا كذا وكذا ، وكانوا فى حال كذا وكذا، فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتا .

قال أبو بكر بن مجاهد : سمعت أحمد بن سنان العطار يقول : سمعت بعض أصحابنا يقول : خرجت يوما إلى نيل واسط ، فإذا أنا بطير أبيض فى وسط الماء ، وهو يقول : سبحان الله على غفلة الناس .

قال جعفر : سمعت الجنيد يقول : لقيت شابا من المريدين فى البادية جالسا عند شجرة ، فقلت : ياغلام ، ماالذى أجلسك ههنا ؟

فقال : ضالّ افتقدته . فمضيت وتركته ، فلما انصرفت إذا أنا به قد انتقل إلى موضع قريب منى ، فقلت له : فما جلوسك الساعة ههنا ؟ .

قال : وجدت ما كنت أطلبه فى هذا الموضع فلزمته .

فقال الجنيد : فلا أدرى أى حاليه أشرف ، لزومه لافتقاد حاله ، أو لزومه الموضع الذى نال فيه مراده .

قال أبو عبد الله محمد بن سعدان : سمعت بعض الكبراء يقول : كنت يوما جالسا بحذاء البيت ، فسمعت أنينا من البيت : ياجدر تنح عن طريق أوليائى وأحبائى ، فمن زارك بك طاف حولك ، ومن زارنى بى طاف عندى .

الباب الخامس والسبعون

﴿ فى السماع ﴾

السماع : استجمام من تعب الوقت ، وتنفس لأرباب الأحوال ، واستحضار الأسرار لذوى الأشغال .

وإنما اختير على غيره مما تستروح إليه الطباع ، لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه ، فإنه من القضاء يبدو ، وإلى القضاء يعود .

Marfat.com

وأرباب الكشوف والمشاهدات : استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم تنزّه أسرارهم فى ميادين الكشوف .

سمعت فارسا يقول : كنت عند قوطة الموصلى ، وكان لزم سارية فى جامع بغداد أربعين سنة ، قلنا له : ههنا قوّال طيب ندعوه ؟ لك .

قال : أنا أجلّ من أن يستقطعنى شخص أو ينفذ فىّ قول ، أنا ردم كله .

فالسماع إذا قرع الأسماع أثار كَوَامِنَ أسرارها ، فمن بيْنِ مضطربٍ لعجز الصفة عن حمل الوارد ، ومن بينِ متمكنٍ بقوة الحال .

قال أبو محمد رويم : إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله : (أَلسْتُ بِرَبِّـكُمْ) (١) فكمن ذلك فى أسرارهم كما كمن كون ذلك فى عقولهم ، فلما سمعوا كَوَامِنُ أسرارهم ، فانزعجوا ، كما ظهرت كَوَامِنُ عقولهم عند إخبار الحقّ لهم عن ذلك : فصدّقوا .

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : السماع على ضربين ، فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة ، وهذا لا يسمع إلا بالتميز وحضور القلب ، وطائفة سمعت النغمة ، وهى قوت الروح ، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم ، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة .

قال أبو عبدالله النباجى : السماع ما أثار فكرة واكتسب عبرة ، وما سواه فتنة .

قال الجنيد : الرحمة تنزل على الفقير فى ثلاثة مواضع : عند الأكل ، فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة ، وعند الكلام ، فإنه لا يتكلم إلا للضرورة ، وعند السماع ، فإنه لا يسمع إلا عند الوجد .

﴿ تم الكتاب بحمد الله ﴾

---

(١) : الأعراف ١٧٢

Marfat.com

التعريف بصاحب التعرف

مع ما بلغه كتاب « التعرف » من مكانة كبرى فى الدوائر العلمية العالمية ، فإن مؤلفه لم يظفر بالعناية الجديرة بمكانته .

فترجمة حياته متواضعة فى كتب التاريخ والطبقات ، والإجماع على أنه كان فقيها حنفيا صوفيا ، وكان إماما أصوليا ، وكان فارسى الأصل ، وكان يلقب بتاج الإسلام.

ويقول محمد بن إسحاق : « هو أبو بكر البخارى الكلاباذى تفقه على الشيخ محمد بن الفضل ، وكان إماما أصوليا ، وله كتاب التعرف جمع فيه أقوال أصحابنا فى التوحيد » .

وكان يطلق على المؤلف « تاج الإسلام » ومن مؤلفاته .

١ ـ الأربعين فى الحديث .

٢ ـ الإشعاع والأوتار .

٣ ـ آمالى فى الحديث .

٤ ـ بحر الفوائد ، المشهور بمعانى الأخبار .

٥ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف .

وغير ذلك .

وعلى كتاب التعرف شرح لشيخ الإسلام عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى المتوفى سنة ٤٨١ هـ وهو شرح لطيف .

وشرح للقاضى علاء الدين التبريزى ، وشرح للإمام إسماعيل بن محمد بن عبدالله المستملى المتوفى سنة ٤٣٤ هـ .

وقد ترجم له « بروكلن » وتتبع النسخ الخطية لكتاب «التعرف» فى المكتبات العالمية . فقال :

هو محمد بن إبراهيم الكلاباذى الحنفى أبو بكر ، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م ـ أو ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠٠ م .

مؤلفاته :

١ ـ كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ، ذكره حاجى خليفة ، ٤١٩ و ٦٦٦ ، الجزائر ٩٠٦ و بودليان ١/٢٥٣ ، وجار الله ٢١٧ ضمن مجموعة هو الأول فيها ورامبو ، ١/٣٥٩ برقم ٢٦٨ مطبوع على هامش « إحياء علوم الدين للغزالى فى استامبول سنة ١٣٢١ هـ ، مختصر له ـ اندياب المكتب الهندى ٦٥٧ ضمن مجموعة هو السادس فيها .

ثم ذكر الشروح التى وضعت عليه وهى :

حسن التصرف ، لعلى بن إسماعيل القونوى المتوفى سنة ٧٢٩ هـ ـ ١٣٢٩ م منه نسخ فى فينا ١٨٨٨ ، برلين ١٢٠٢ ، و بيازيد ١٧٠٩ ، برلين ٣٨٧ ، وعليها تعليقات مختلفة منسوبة إلى الشيخ على بن أحمد بن محمد بن أحمد المتوفى قريبا من ٨٨٠ هـ ـ ١٤٧٠ م ـ وانظر كذلك فوز المريدين . . إلى آخره .

٢ ـ بحر الفوائد ، المسمى بمعانى الأخبار ، ذكره حاجى خليفة ١٧٢٩/٢٢٤ .

أصول خطية : جار الله ١٣٦٨ بين جامع ٢٧٤ ، والاسكندرية ٨ ـ حديث القاهرة ١/٩٢ ، وجاء فى ذيل مجموعة « بروكلن » .

محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وفى مخطوطة باريس برقم ٥٨٥٥ : محمد بن أبى إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكلاباذى الحنفى أبو بكر المتوفى عام ٣٨٠ هـ أو ٣٨٥ هـ أو ٣٩٥ هـ .

ومن مؤلفاته كتاب « التعرف » وقد نشر ـ ار برى ـ الأصل العربى بالقاهرة ، ونشرت ترجمة انجليزية له فى كمبردج بانجلترا سنة ١٩٣٦ م .

Marfat.com

نور آباد فتح گڑھ سیالکوٹ

ثم يذكر :

« إن كتاب « التعرف » كتاب مختصر مشهور ، آتنا بشأنه المشايخ وقالوا فيه : لولا التعرف لما عرف التصوف » .

وفى سفينة الراغب : « هو كتاب عزيز الوجود ، كثير النفع ، أشار إلى مشرب القوم وحقائق السلوك » .

التصوف لباس الانبياء وزى الاولياء ص ٢٢

Marfat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
التصوف . . . والتعرف	١
لجنة نشر الأصول الصوفية	١٤
مقدمة المؤلف	١٩
الباب الأوّل قولهم فى الصوفية لم سميت الصوفية صوفية	٢١
الباب الثانى فى رجال الصوفية	٢٧
الباب الثالث فيمن نشر علوم الإشارة كتبا ورسائل	٣٠
الباب الرابع فيمن صنف فى المعاملات	٣٢
الباب الخامس شرح قولهم فى التوحيد	٣٣
الباب السادس شرح قولهم فى الصفات	٣٥
الباب السابع اختلافهم فى أنه لم يزل خالقا	٣٧
الباب الثامن اختلافهم فى الأسماء	٣٩
الباب التاسع قولهم فى القرآن	٣٩
الباب العاشر اختلافهم فى الكلام ماهو	٣٩
الباب الحادى عشر قولهم فى الرؤية	٤٢
الباب الثانى عشر اختلاف قولهم فى رؤية النبى عليه السلام	٤٣
الباب الثالث عشر قولهم فى القدر وخلق الأفعال	٤٤
الباب الرابع عشر قولهم فى الاستطاعة	٤٦
الباب الخامس عشر قولهم فى الجبر	٤٨
الباب السادس عشر قولهم فى الأصلح	٥٠

صفحه

الباب السابع عشر قولهم فى الوعد والوعيد ٥٢
الباب الثامن عشر قولهم فى الشفاعة ٥٤
الباب التاسع عشر قولهم فى الأطفال ٥٧
الباب العشرون فيما كلف الله البالغين ٥٨
الباب الحادى والعشرون قولهم فى معرفة الله تعالى ٦٣
الباب الثانى والعشرون اختلافهم فى المعرفة نفسها ٦٦
الباب الثالث والعشرون قولهم فى الروح ٦٧
الباب الرابع والعشرون قولهم فى الملائكة والرسل ٦٨
الباب الخامس والعشرون قولهم فيما أضيف إلى الأنبياء من الزلل ٧٠
الباب السادس والعشرون قولهم فى كرامات الأولياء ٧١
الباب السابع والعشرون قولهم فى الإيمان ٧٩
الباب الثامن والعشرون قولهم فى حقائق الإيمان ٨٢
الباب التاسع والعشرون قولهم فى المذاهب الشرعية ٨٤
الباب الثلاثون قولهم فى المكاسب ٨٥
الباب الحادى والثلاثون فى علوم الصوفية علوم الأحوال ٨٦
انباب الثانى والثلاثون فى التصوف ماهو ٨٩
الباب الثالث والثلاثون فى الكشف عن الخواطر ٩٠
الباب الرابع والثلاثون فى التصوف والاسترسال ٩١
الباب الخامس والثلاثون قولهم فى التوبة ٩٢
الباب السادس والثلاثون قولهم فى الزهد ٩٣
الباب السابع والثلاثون قولهم فى الصبر ٩٤

Marfat.com

صفحة

الباب الثامن والثلاثون قولهم فى الفقر ٩٥
الباب التاسع والثلاثون قولهم فى التواضع ٩٧
الباب الأربعون قولهم فى الخوف ٩٧
الباب الحادى والأربعون قولهم فى التقوى ٩٨
الباب الثانى والاربعون قولهم فى الإخلاص ٩٩
الباب الثالث والأربعون قولهم فى الشكر ١٠٠
الباب الرابع والاربعون قولهم فى التوكل ١٠٠
الباب الخامس والاربعون قولهم فى الرضا ١٠٢
الباب السادس والاربعون قولهم فى اليقين ١٠٣
الباب السابع والاربعون قولهم فى الذكر ١٠٣
الباب الثامن والاربعون قولهم فى الانس ١٠٦
الباب التاسع والاربعون قولهم فى القرب ١٠٧
الباب الخمسون قولهم فى الاتصال ١٠٨
الباب الحادى والخمسون قولهم فى المحبة ١٠٩
الباب الثانى والخمسون قولهم فى التجريد والتفريد ١١١
الباب الثالث والخمسون قولهم فى الوجد ١١٢
الباب الرابع والخمسون قولهم فى الغلبة ١١٣
الباب الخامس والخمسون قولهم فى السكر ١١٦
الباب السادس والخمسون قولهم فى الغيبة والشهود ١١٨
الباب السابع والخمسون قولهم فى الجمع والتفرقة ١١٩
الباب الثامن والخمسون قولهم فى التجلى والاستتار ١٢١

Marfat.com

صفحة

الباب التاسع والخمسون قولهم فى الفناء والبقاء ١٢٣
الباب الستون قولهم فى حقائق المعرفة ١٣٢
الباب الحادى والستون قولهم فى التوحيد ١٣٤
الباب الثانى والستون قولهم فى صفة العارف ١٣٦
الباب الثالث والستون قولهم فى المريد والمراد ١٣٩
الباب الرابع والستون قولهم فى المجاهدات والمعاملات ١٤١
الباب الخامس والستون حالهم فى الكلام على الناس ١٤٤
الباب السادس والستون فى توقى القوم ومجاهداتهم ١٤٧
الباب السابع والستون فى لطائف الله للقوم وتنبيهه إياهم بالهتاف ١٥٠
الباب الثامن والستون تنبيهه إياهم بالفراسات ١٥١
الباب التاسع والستون تنبيهه إياهم بالخواطر ١٥٢
الباب السبعون تنبيهه إياهم فى الرؤيا ولطائفها ١٥٣
الباب الحادى والسبعون لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم ١٥٥
الباب الثانى والسبعون لطائفه بهم فيما يحملهم ١٥٧
الباب الثالث والسبعون لطائفه بهم فى الموت و بعده ١٥٧
الباب الرابع والسبعون من لطائف ماجرى عليهم ١٥٩
الباب الخامس والسبعون فى السماع ١٦٠

Marfat.com

Marfat.com